رواية

I3 وظلام

ميار عصام برغوثي

الاهداء

بداية، الى كل من راهن على فشلي يوما.

الى كل دور النشر التي رفضت نشر روايتي حتى لجأت لنشرها بنفسي.

الى وطني الكبير أولا، الى فلسطين التي حاولت ان اكتبها بشكل يخصني وان اجمعها بين دفتي كتابي.

الى كل شهيد، اسير، جريح منذ بداية معركتنا الحاسمة،

الى والدي ووالدتي واخوتي وعائلتي الكبيرة جدا،

الى أصدقائي،

بلقيس اولا، شروق، اسراء وكندة وكل من وقف ليعطيني دفعة من الحب والدعم في وسط خيباتي.

الى كل قلمٍ ظل حراً حتى الرمق الأخير.

ثم اليه، وحده من سيستطيع قراءة اسمه هنا.

"دعونا نتذكر أن: كتاباً واحداً، قلماً واحداً، طفلاً واحداً، ومعلماً واحداً، يمكنهم تغيير العالم"

ملالا يوسفزي.

ها هي الآن تجلس امام مكتبها القديم، تحدق في الكتب الموضوعة أمامها " درع مقدم من البلدية ووزارة الثقافة " هكذا كتب على الجائزة المقدمة لها في منتصف الكتب، بين الكتب المرتبة ولكن بشكل عشوائي، كالمواضيع التي تحتويها، شهادة مشاركة موضوعة على الجانب الآخر، الكثير من الأوراق المرمية في كل مكان ، شهادات وكتب والكثير من الأوراق تحوي معا مئات ملايين الكلمات وآلاف المشاعر، والكثير من الافكار، تجلس هي بصحبة الاف الاشياء المعبأة بالمعلومات والافكار ورأسها فارغ تماماً، لا تتسلل اليه اي منها، وضعت المجموعة التي كانت قد أخذتها من والدها، وبدأت تخط هذه الكلمات، التي لا تعرف لأين ستجعلها تصل "لمن سترسلها"، ترتجف يداها، ويرتعد قلبها فجأة، شعور بالخوف يواجهها لأول مرة، وهي وحدها، فقلبها وعقلها يقولان لها بأن هذه الأحرف ستجعل من مشروع الكاتبة "الكتابة ناجحا" الذي سيكتبها ناجحاً .

كانت حياتها عادية لأبعد الحدود، تمتلك من التجارب الكثير وربما سأستطيع روايتها لاحقاً في يوم من "أيام "شهر يوليو الحر "الحارة" أقرب الى منتصفه، كانت تجلس مع صديقاتها، على درج المنزل، يضحكن وترتفع أصواتهن، ، كن يحدثن صخباً مليئاً بالحياة في الحي ، كن يحيين روح الحي البائسة، بصوت ضحكاتهن ، التي تصل حدود السماء، حين تلقي إحداهن نكتة أو تقوم أحداهن بتصرف غبي وأحياناُ كثيرة بلا سبب يذكر، في تلك الجلسة فقط كانت الهواتف النقالة الحديثة توضع جانباً، ولا تفتح إلا نادراً، في وقت رسالة يجب الرد عليها، أو مكالمة مستعجلة، أو لالتقاط بعض الصور، كان هاتفها صامتاً دائماً، ولو لم تكتم صوته، لم تكن كثيرة التواصل عليه، رغم حبها لتصفحه، بقي هاتفها كذلك إلا في ذلك اليوم، أو في تلك الساعة أو لنقل أنها ساعة إلا خمس وخمسون دقيقة، في خمس دقائق فقط، رن الهاتف أكثر من مئة مرة ما بين رسائل واشعارات واتصالات ، لم تعره أي اهتمام في البداية، إلا أنها صدمت بعدها، من كثرة الاتصالات والرسائل، والإشعارات المفاجئة ، نظرات صديقاتها الغريبة، لها زادت من استغرابها، إحساسها الذي لم يخب يوماً قال :إن شيئاً سيغير حياتها قد حدث ، ربما قبلت في أحد المنح، أو أن مشهوراً نشر صورتها، هل شاركت بتحد وفازت، عشرات الأفكار تسللت إلى رأسها في غضون ثوان، كانت يدها تذهب لتلتقط الهاتف الموضوع على الدرجة الاعلى منها، بدأ قلبها يخفق بسرعة وهي تضع رمز المرور، التي كانت قد وضعته، حتى لا يعبث أحد أشقائها به في لحظة غفلة، "059302.... أخطأت الرقم، تباً، كانت الرجفة، حتى نجحت أخيراً في وضعه بشكل صحيح، في المرة

التاسعة، بقي الهاتف على حاله يرن كثيراً، ما أن فتحت الهاتف حتى جاءها اتصال من إحدى الصديقات:

– ألو مرحبا، أنا آسفة انو هيك صار عظم الله أجركم.

– ألو، إيش ، شو في ؟؟؟

لم تنتظر صديقتها أن تحكي لها فقد أغلق الهاتف دون أن ترد عليها بعد أن حبست دموعها، لتقول هذه الكلمات دون بكاء، فربما الموقف يستلزم بعض المساندة والقوة، لم تكن تعرف ما الذي حدث، دخلت لقائمة الرسائل، فوجدت في مقدمتها رسالة من وكالة اخبارية وعشرات الرسائل من اناس اخرين، لم تأبه لرسالة الوكالة، فتحت كل الرسائل في هاتفها ولم تجد سوى جمل محصورة في عظم الله أجركم، رحمه الله ، كوني قوية، كلنا معك، هذا بطل، اوجعني الخبر كوني قوية، لروحه الرحمة، اتصلي فينا اذا عرفتو اي شي .

تأكدت المأساة حينها، أحد أفراد عائلتها المقربين في ذمة الله، الكثير من الهوامش والتفاصيل التي نهملها يمكن أن تقلب حياتنا راساً على عقب، كانت قد أتمت قراءة كل الرسائل، وتريد الاتصال بشقيقتها لتفهم منها ما حصل، حتى باغتتها رسالة من الوكالة ذاتها، فتحت تلك الرسالة، أشع وجهها باللون الصفر تماماً كلون قائمة الرسائل، قرأت الرسالة الأولى شهيد من مدينة رام الله حاول تنفيذ عملية طعن، وفي الرسالة التالية الشهيد هو وذكر الاسم وهو يبلغ من العمر 17 عاماً، قرأت الاسم كثيراً حتى تتأكد أنه هو، تلك اللحظة ، لم تكن تفهم ما يقال، فكل الأصوات حولها، وفي رأسها أصبحت غير مفهومة على الإطلاق في ظل تلك المصيبة، تعالت الأصوات كثيراً، شو في؟؟؟ ولك قولي خوفتينا ، لا حول ولا قوة الا بالله ولك قولي قلوبنا وقعت، لم تكن تريد إخبارهم، فمن المؤكد أن هناك لبساً في القصة، أو خطأً ما، حاولت إنكار المصيبة، وقالت : لا فش اشي، قاطعها صوت والدتها الذي كان يصرخ من البيت، في الأعلى فأسكتها، وحطم روحها، أغمضت عينيها في تلك اللحظة وقد كرهت أن تصدق، ولكنها صدقت، فتحت عيونها، هوت من عينها دمعة واحدة احرقت خدها، كما احرقت روحها، ، دمعة واحدة فقط، مسحت خدها وقالت : " مصارش اشي" " اخوي استشهد بجوز" كلمة " بجوز" خففت ولو قليلاً من وطأة الخبر الذي كان من الممكن أن يكون مؤكداً أو ربما مغلوطاً، ولكن الخبر كان يضج في كل ارجاء الدنيا، من المؤكد أنه صحيح ولكنها كانت تتأمل أن يكون خاطئاً حينها.

صدمت صديقاتها من الخبر ومن ردة فعلها، ففتاة مثلها قليلة البكاء قوية القلب لا يحتمل ان تبقى بقوتها في فاجعة كهذه، حاولت امساك دموعهن التي كانت ستسقط لا محالة، لكن لا داعي، شو صار بالزبط قولي، معلش يا حبيبتي الله يحميه اذا كان عايش، ويرحمه اذا كان استشهد، حاولن المكابرة كلهن، غباش تام اجتاح عيونها، أفكار تتوارد الى ذهنها بسرعة البرق، فتختلط معا وتنتج شيئاً غير مفهوم منه إلا الحزن وهدأ الحي كله، وهدأ صوت ضحكاتهن.

بصعوبة صعدت بضع درجات الى الأعلى، أمسكت بالحائط الخشن تارة، وبكتف صديقاتها تارة أخرى، حتى وصلت دفعت الباب بقدمها، ودخلت البيت، والدتها تبكي ووالدها أيضاً، لأول مرة ترى والدها بهذه الحال، فهل يبكي الرجال ، لم تكن قد رأت دموع والدها إلا مرة واحدة فقط، يوم وفاة جدتها، " والدته" المصيبة كبيرة، لم تستوعب ما الذي يحصل، تريد ان يكون كل شيء حلماً، ما أن وصلت وجلست صامتة باردة ، في قرارة نفسها أمل بأن يكون الأمر خاطئاً، ربما تشابه أسماء، ما ان استقرت في مكانها بجانب والدتها، حتى بدأ الجميع بالتوافد، نساء الحي، الأقرباء كلهم، القريبات ، كل من في القرية، كان يجلس في منزلهم، تعرف الكثيرين وتجهل الكثير، والجميع يبكون حتى الرجال، حتى اصدقاء شقيقها، المعظم يبكون، ويكتم دمعه بصعوبة، وتفلت منه دمعة او اثنتان، على حين غفلة، صرخت في الجميع بصوت مرتجف جاف خال من اي دموع على عكسهم، فش اشي أكيد لسة، ادعوله .

طالت الساعات كثيراً، حرب أعصاب حارقة، أتلفت أعصابهم الأخبار الكاذبة، جريح، شهيد، أسير ، مصاب، الكل يفتح هاتفه ويقول خبراً غير مؤكد، لم تتعبهم مأساتهم كما أتعبتهم الأخبار غير المؤكدة، والمنقولة عن الصحافة الخارجية، في تلك اللحظة، في وسط صمت الأفواه وصراخ الأرواح، رن هاتف واحد من أبناء عمومتها، رقم غريب، رد على الهاتف وخرج، تجلس في المنتصف والنساء تحدها من كل جانب، وما هي الا لحظات حتى عاد الشاب بوجه أقل ما يقال عنه انه يكبر الوجه الذي خرج بعشرين عام، فهو مثلها كان آملاً، قال بصوت يرتجف: أكدوا الخبر، الحمد لله شهيد، صمتت كل الأصوات في أذنها، لم تستطع ان تقول كلمة واحدة تعالت أصوات النساء حولها، البكاء الهادئ الذي يحرق الأرواح ، هي لا تبكي وهم على هدوئها هادئون، توقفت كل الأفكار في رأسها عند جملة استشهد، صمتت كثيراً، وفجأة استوعبت ما الذي حدث، " لا قصي بعد اليوم" وجهها الذي يحدق الى الامام احمرّ وعيونها امتلأت بالدموع، أرخت جسدها كاملاً، أخذت نفساً عميقاً وأعادت رأسها إلى الوراء، حدّقت في السقف لثواني، ثم أخرجت كل ما فيها بصرخة واحدة، صرخ كل الموجودين، وكأنهم كانوا يكتمون كل الصراخ

حتى تلقوا إشارة منها كانت صرختها طويلة، حادة تخترق القلوب وتخترق الأرواح، منها، ما أن أنهت صرختها التي تزامنت مع صرخاتهم، حتى أرجعت رأسها وصمتت وصمت الجميع معها .

افتحوا التلفزيون خلونا نشوف ، قالت إحدى الجارات ، دوى صوت محطة الأخبار عالياً : يعرض مسلسل سوري على القناة، تباً لهم، أين يعيش هؤلاء، وبدأ أحد الشباب يقلب جميع القنوات الاخبارية في سبيل رصد خبر واحد ، واخيراً صوت مذيع نشرة الأخبار العاجلة مرتبكاً، أعزائي المشاهدين، وصلنا الآن خبر عاجل، أحد الشبان الفلسطينيين قام بعملية طعن في مستوطنة اسرائيلية أدت إلى مقتل مستوطنين واستشهاده، تعالت أصوات الزغاريد، عالياً، وبدأت النساء بتقبيل والدته وشقيقته، التي كانت لا زالت في حالة الصدمة ذاتها، أما والدته، فقد كانت تبكي بحرقة لم تبك مثلها منذ زمن طويل، جلس الكل على المقاعد يهنئون والدته، ويرددون آيات قرآنية عن الجهاد والكفاح ويقولون عبارات تحاول أن تجعل من ابنها بطلاً، في نظرها كما هو في نظر جميع الواقفين هناك، ويخفف وطأة الألم، ورغم كل ذلك لم تزل دموع والدته الحارة تلتهم خدها، ولم يزل والده حائراً لا يدري هل يبكي أم أنه يجب أن يبقى قوياً، من أجل زوجته وبقية أولاده، على أي حال لم تكترث دموعه للخيار الثاني، صوت المذيع مرة أخرى، خبر عاجل، تعالت الأصوات آمرة برفع صوت التلفاز، " المستوطن الثالث في عملية الطعن قد فارق الحياة الآن " صرخ الجميع مكبراً بمن فيهم والده، واستمر الجميع بتهنئة والدته، حتى صرخت وهي تبكي من فرط الألم، هاتوا لي اياه، بحياتكم هاتوا لي اياه، خذوا البلاد اولها وتاليها، دبّ الصمت في المكان رغم بكاء الكثيرات بعد جملتها الدامية هذه، أتفرح لأن ابنها قام بعملية بشيء لأجل الوطن، أم تحزن لأنها فارقت فلذة كبدها، أتفرح لأن طفلها نجح في اختبار الرجولة الحقيقي وتوِّج الآن رجلاً ومن خيرة الرجال، ولكنه ما زال طفلها المدلل ، أتفرح لأن ابنها بطل في الجنة، ام تحزن لمفارقته حضنها، كان من الممكن ان يناضل بطرق أخرى، لا زال صغيراً، ستحزن بلا شك، فهو في النهاية طفلها، كيف لها أن تفرح بعمليته واستشهاده، مثل كل الموجودين هنا ، كل الموجودين هنا سيعودون الى احضان امهاتهم بعد هذه الليلة، ستغطي الأمهات أطفالهن، ليلاً وسيغطى الشبان اثناء نومهم وسيبقى سريره فارغاً، سينساه الجميع، بعد يوم او يومين، او حتى شهر او سنة، ولن يبق في ذاكرتهم له شيء، الا ذكريات "الفيسبوك" بمنشورات كانوا قد مجدوه بها، مجدوه ثم نسوه، وستبقى له عائلة تنتظره كل يوم على الغداء، وستبقى حبيبته تنتظر رسالته، ويبقى الالم بهم إلى الأبد، وربما ليس كل من ذكروا ، حتى من أقسموا أنهم لن ينسوه، سينسون قسمهم قبله وينسون، نحن في بلاد شعبها من فرط الاعداد والأسماء نسي وكل ما في هذه البلاد، إن

نسيَ نُسيَ، اتركوه جرحاً راعفاً ولا تقولوا لها انكم كلكم أبناؤها، لا تفرحوها محاولين انساءها ثم تنسونها ، لا تحرروا الشعارات أمامها، وتصرخون بكل قوة وانتم ستهملون، لماذا تصرخون " بالروح بالدم نفديك يا قصيّ، وانتم تعلمون انكم لن تفدوه لا بالروح ولا بالدم.

هذا قصي، صورته في كل مكان في غرفتها، وفي حقيبتها، وعلى هاتفها النقال، صورته مطبوعة في ذاكرتها، فهو الشقيق الاقرب إلى قلبها، وإلى عمرها أيضاً، كان يكبرها بعام واحد فقط، كان ملجأ أسرارها، ضحكاته كانت ترن في أرجاء البيت كل يوم، خطواته، نكاته السخيفة، التي تجعل من مزاج البيت الكئيب فرحا، هل سيبقى مزاج البيت كئيباً بعده هكذا، قصي، ابن السبعة عشر ربيعاً لم يصل الى صف "التوجيهي" الذي كان اكبر مخاوفه، وكان يبني اماله الكبيرة عليه وعلى تفوقه بعدها، بالتأكيد لأن الشهادة أنثى تختار أجمل شبان الوطن فرساناً لها، هل كانت الرصاصة ستمر بجانبه لكن رائحة الجنة المنبعثة منه أغوتها، وجعلتها تقترب منه حتى اخترقت قلبه، لا ندري نحن حتى هل كانت رصاصة واحدة او اكثر، قصي الذي كان يخاف ان يؤذي أحداً بكلمة، قصي كان قويا شجاعا لينا رقيقا لا يؤذي ما لم يؤذَ، كيف تمكن من القتل ؟ ما الذي كان يدور في رأسه في الدقيقة الأخيرة، ما الذي كان يفكر به هل ارتجفت يده قبل أن يقتل ام ان الغيظ بداخله ثبت قلبه وجعل يده ثابتة أيضاً، كل التساؤلات هذه كانت تحرق رأسها وتفكيرها وكأنها لهب يوضع على أعصابها وخلايا عقلها، هل آلمته الرصاصة اخيراً، أم انها لم تعطه فرصة لأن يصرخ ، لأن يبكي، لأن يندم، هل سرقت آخر انفاسه بسرعة، أم أنها جعلت من نفسه لهباً يحرق جسده قبل أن يستشهد، هل نكلوا به، هل مثلوا بجثته، لا يستحق قصي هذا التعذيب، ولا نستحق أيضاً نحن كل هذه الحروب النفسية، لقد كان الأمر في لحظتها صعباً جداً لأبعد الحدود، كان الأمر حينها يشبه التهاب الأسنان لكنه في القلب .

كل هذه المشاعر ولم يمض على وصول الخبر سوى بضع ساعات، الساعة الآن الحادية عشر تماماً، الكل منهمكون في البكاء والتفكير في بضع دقائق، ولا ندري كيف تحول البيت الى بؤرة ومعسكر ملئ بالجنود، انهم في كل مكان، دخلوا من الأبواب والنوافذ، ومن سطح المنزل، بدأوا بحجز جميع الموجودين في غرفة واحدة، أطلقوا الغاز وقنابل الصوت ، منعوا الجميع من الخروج، نادوا على والدي، حتى خرج لهم، يرفع كل الجنود السلاح عليه، ويمشي هو بخطوات ثابتة نحو قائد المنطقة، بصوت ثابت، كالجبال يقول له والدي، تفضل شو بدك، انا ابوه للبطل قصي، يرد الضابط مبتدئا هذا الحوار الطويل، بطل ولك هذا ابنك ارهابي.

– يا سيدي ابني ارهابي ع أساس انت مش ارهابي.

– له له يا ابو قصي، فكرتك فهمان، ابنك الكبير راح يا ابو قصي، قصي راح.

كان الضابط الذي يتحدث العربية بطلاقة حقيرا جدا، كان يصر على تأكيد الفاجعة، وجعلها محزنة اكثر كل مرة، رد أبي بقسوة ظهرت في صوته، كل اولادي فدى فلسطين، يا ريت عندي 100 ولد يعملوا عمليات مثل عمليه قصي ويستشهدوا.

، لم يكن ابي صادقا في تلك اللحظة، ولم يكن يتمنى ما قاله حقاً لكن كبرياءه دفعه للقيام بذلك، وهو نفس الكبرياء الذي دفع قصي للقيام بهذا العمل البطولي، صدم الضابط من ردة فعله فتغيرت ملامح وجهه من الواثقة الى المتلعثمة الغاضبة الحاقدة فكرر ما قاله بصوت أعلى، بقول لك قتلنا لك قصي".

فانهار ابي بالبكاء، وخارت قواه، بدأ الضابط حديثه وسافر في تخيلاته واسئلته كثيرا، تعمق في تفاصيل التفاصيل، كان رغم حقارته، ينصت جيداً لإجابة أبي وأمي بعد سؤاله عنه كانت قواي تنزف على شكل دموع امامي، وكل الأسئلة المنطقية و اللامنطقية راودت عقلي، وجدت اجابة لها الا سؤال واحد، بقي عالقا في رأسي، هل يؤثر الشهيد فيهم كما يؤثر فينا، هل لهذا هو يسأل عنه كثيراً، هذا السؤال وحده بقي عالقاً في رأسي، هل للشهداء بأفعالهم تأثير على الجميع، الأعداء كما الأقرباء، هل يفتن جندي درزي بصورة شهيد في الثامنة عشرة من عمره قتل زملاء له في الاقتحامات، او ضابطا كما نفتن، هل يحللون اقوالهم السابقة لا فعالهم كما افعل، هل يخوضون في تفاصيل استشهاده ؟ امه؟ عائلته؟ وضعه النفسي والاجتماعي والتعليمي؟ طول شعره، لون عيونه؟ هل يسألون عن شعوره في لحظات الحسم ام انا التي افعل فقط؟ لطالما تساءلت لماذا يفعلون هذا؟ وكيف يفعلون ذاك، لطالما هدمتنا افكارهم قبل افعالهم، مبادئهم الوطنية الثابتة التي تجعل تسلب من افواههم لتذهب رصاصة تخرج من فوهة بندقية على شاب من يهود روسيا، يسرق ارضاً لشيخ في قرية مهجورة من سكانها ولا يسكنها الا القليل؟

كل ما في افعالهم واقوالهم وحتى عيونهم فاتن، لطالما تساءلت كثيرا عنهم وجعلتهم قدوة في حياتي بأقوالهم ورغم كل ثقافتي التي ادعيها، والكتب التي قرأتها، والحوارات التي خضتها لم اجد فعلا ابلغ من فعل الشهيد.

وفي وسط الأحزان التي تذرف على شكل دموع والنيران التي كان لهيبها يضرب عمق ارواحنا وفي وسط التحقيقات الميدانية لوالدي ووابل قنابل الغاز الذي يضرب عقولنا وقلوبنا قبل ان يضرب قنوات الشم لدينا

ويخنق فرحنا قبل ان يخنق انفاسنا، وفي وسط خيبات الفخر الشديد واحزان الفرح او افراح الحزن، جاء صوت جندي ينادي الضابط الذي يحاول ان يدوس على مشاعرنا بعد ان دسنا على كرامة وطنه كاملا وجعلنا من نظريته الامنية المعقدة لعبة يلعبها شاب في السابعة عشرة ممن يصنفون من أشراف هذا الوطن.

– سيدي الضابط، جاءنا اتصال من وحدة التحقيق الميدانية يقولون انهم وجدوا من ورقة كان المخرب "ق.ب.ع" قد كتبها وكتب فيها الكثير من الامور المهمة كما افاد، قال كلماته هذه وكانه رمى كبريت الحيرة فوق وقود الألم فاشتعلت نيران غضب داخل قلبي وأردت في هذه اللحظة فقط معرفة ما تخبئه هذه الورقة .

واتبع الضابط جملة اين يارا ، مع وابل من نظرات الدهشة التي كانت ترسم على وجهه تارة ونظرات الحقد تارة اخرى ، كانت عيناه تتسعان صدمة تارة وتضيف حقدا او محاولة فهم ما كتب في الرسالة التي ارسلت مصورة اليه، في تلك اللحظات كانت نار تشتعل داخلي وإحساسي الذي لا يكذب قال لي ان رحلة صعبة وخطيرة ستبدأ بعد لحظات، وما أن أنهى اللعين قراءة الرسالة حتى صرخ باسمي منادياً، كان قلبي يرتجف كيداي تماماً، حتى قدماي ما عادتا تحملانني كي أذهب إليه، فحاولت معالجة خوفي وتبرير عدم قدرتي على المشي بجملة " اللي بدو الثاني بروح لعنده" ، صعقته كلماتي وكأنني سكبت ماء حاراً عليه، وقف حائراً وخجلاً، أمام كلماتي وعيناه تلعن قصي وتلعنني وتلعن كل ما في هذا الوطن من كبرياء، كل ما في هذا الوطن له كبرياء خاص، الأطفال، النساء، الشيوخ، الرجال ، الشجر، الحجر والبنايات حتى المساجد والكنائس تحمل كبرياء وعزة لا يملك مثله سوى ما هو فلسطيني.

مشى باتجاهي بخطواتٍ تحاول أن تمثل أنها واثقة واقترب نحوي حتى صار وجهي أمام جعبة الأسلحة خاصته، أنزل رأسه قليلاً حتى صارت عيناه بمقابلة نظاراتي الطبية ببرودة شديدة اجتاحت روحي وكأن صاعقة انهم قتلوا قصي قد وصلت الى دماغي في تلك اللحظة، كل الكره في داخلي يتشاجر مع لساني حتى يخرج ، فتح فمه ضاحكاً محاولاً استفزازي بأسنانه الصفراء ورائحة الدخان تنبعث من فمه الكريه، ثم قال بصوت يغلبه الاستهزاء : " قصي بحبك كثير لدرجة ان كل وصيته بحكي عنك" صمت بعد هذه الجملة طويلاً، وحك رأسه بعد أن بقيت أنا صامدة في وجه كلماته التي كانت كمطرقة هدمت جدر الأمل والفرح داخلي ، لا أدري أي فرح بقي داخلي ولكن كلماته هدمت المهدم وفتت المفتت وقسمت ما بقي

داخل روحي من فتات الفرح، كانت قد خلقت داخلي من رؤيته حائراً خجلاً وحاقداً، أفرح رغم ألمي خلته لي ألمه .

قال لي بصوت صارم لم يهز من ثقتي التي انقلبت عن خوف سابق شيئاً.

– ما علاقتك بقصي ؟

أضحكني السؤال كثيرا لدرجة جعلتني أنفجر ضاحكة في وجهه وأقول له:

– بعرفوش، بس بقولوا أنه أخوي، انت غبي شي؟

سؤالي جعل منه ثوراً هائجاً كثير الغضب قليل العقل، فقال بصوت تخرج منه أطنان من الغضب: "خذوها".

جاء الجنود مسرعين، 3 جنود طوال القامة أكاد أختفي أمام طول قامتهم ويكادون يختفون أمام عظمة كرامتي، وضعوا في يدي الأصفاد ورموني داخل جيبهم اللعين ثم جلس اثنان منهم جانبي وجلس آخر في الكرسي الأمامي بجانب السائق، تحدثوا بلغتهم التي لا أفهمها وما أن أتموا حديثهم حتى فتح الجندي الذي يجلس في الأمام الباب وخرج وكذلك فعل الجندي الذي كان يجلس على يميني، ثم اغلقوا الأبواب وذهبوا ولم يبق سواي انا وجندي واحد ونفسي التي ترهقني تفكيراً، نظر الي نظرة اخافتني ثم رفع يده حتى صارت قريبة من وجهي وازاح عنها القماش الذي يرتديه ثم قام بفك زر لمشد ملفوف على يده واذا بنقش لخريطة فلسطين مرسوم على ساعده ومكتوب بجانبه "صارت تسمى فلسطين" بشكل طولي بخط مزخرف، صدمت آنذاك ورفعت رأسي من مستوى ذراعه الى مستوى وجهه الذي كان اشبه بمن قام بمصيبة، كانت عيناه تذرفان الدموع، وصوته ينشج ببكاء يدل على حزن شديد، وقال لي بنبرة ضعف وانكسار بلغة عربية طليقة لا يوجد فيها شيء من التكسير بتاتاً، أنا اسف ولدت هنا وكتب علي ان ابقى هنا، ولكن عقلي وضميري غير راضيين ، حزنت جدا على استشهاد شقيقك، كما حزنت تماماً، ولكنه لا مفر لي من هذا الإجرام، صدمتني ردة فعلي كما صدمته، لا أدري كيف بصقت في وجهه وقلت له : " كله حجج، بتقتل أخوي وبتيجي تبكي هون"

صدم من ردة فعلي ولم يبد أي ردة فعل، كان معه رشاش ملئ بالرصاص قادر على قتلي ولكنه لحسن حظي لا للطافته، لم يفعل....

كيف يمر الشهداء من أمامنا كل يوم ولا نراهم، كنت أفكر كثيراً وكان التفكير يقتلني حقاً، تراه اليوم مبتسماً أمام باب منزلك وتراه غداً ملفوفاً بعلم هذه البلاد محمولاً على أكتاف شباب غاضبة وأفواه صارخة وقلوب لم تعد تحتمل كثرة الفقد ووجع الخسارة ، تراه اليوم ينادي شقيقك للخروج ويراه شقيقك في اليوم التالي صامتاً صامداً يدعوه للخروج لمكان آخر، لغرض آخر يختلف تماماً عن غرض البارحة الذي يدفع الجميع لأن يظنوا ان من يفعل هذا شاب طائش يشتمونه ويشتمون افعاله في اليوم الاول ويمجدونه في اليوم الذي يليه، يحدث كثيراً أن تشتم فتاة شاباً لأنه زاد من عبء غسل الأواني والصحون لديها ثم تذهب لتخلق قصة حب رومانسية خيالية بينهما تحدّث بها إحدى صديقاتها او جدران غرفتها وتتأمل فيها راجية أن تكون حقيقية في يوم من الأيام، ثم ينتهي الأمر برصاصتين، إحداهما تخترق الرأس والأخرى تخترق القلب تاركة وراءها أماً حزينة وأباً مكسور الضلع وشقيقة تتفاخر علانية وتبكي سراً وعاشقة تنتظر قصة لن ترسم ملامحها أبداً .

ويحدث كثيرا أن تجد من كانت زوجتك في لعبة طفولية قبل أعوام كثيرة تحارب جنوداً على معبر بسكين أو مقص وتتركك حائراً في نفسك خجلاً من ذاتك أمام فعلها، يحدث كثيراً أن تسرق نساءنا رجولة أمة كاملة.

كنت أمسك بيدي التي ترتجف قلادتي التي تشكلت على شكل نجمة بحر كانت قد أهدتني إياها صديقة ورفضت ان أخلعها على الرغم مما سببته لي من حساسية، ولكنني في تلك اللحظة وأنا أحكم قبضتي عليها وكأنني أخاف ان تهرب مني ويسرق ما أعطتني إياه من طمأنينة، شعرت بأنني في تلك اللحظة قطفت نجمة من السماء وعلقتها في صدري وحزمت أمري وقررت ان اليوم سيكون قوة فقط، ولن أكيل نفسي للضعف، ثانية واحدة، سأكون قوية رغم أنف كل ما يحدث وما سيحدث .

كل ما أراه الآن ظلام، الزجاج الأمامي، لا يعكس شيئاً إلا ظلام الليل، وشيء من ضوء القمر، بجانبي جندي آخر يفوقني خبرة ولكنه ليس مثلي ، هو يفكر فيما فعلت وقلت ولكنني افكر فيما يفعلون هم الآن في الداخل، هل يؤذون والدي، ام انهم يزيدون اوجاع والدتي بكلماتهم واسئلتهم، متى سيفرجون عن الجيران والاهل المحتجزين في الداخل، حاولت ان لا اجعل التفكير داخلي يضعفني، الا ان اصوات رأسي كانت تخلق لي تشويشاً، كانت كل الأفكار السيئة تحلق عالياً بكل ما تحمل من سوء وتخيّم في تفكيري حتى أكلت من روحي وشربت من نهر الالم الذي انفجر بداخلي، كنت قد قلت قبل لحظات بانني

قوية ولن اضعف ولكن الامر فعلا يفوق الضعف، الامر بات يستنزفني، رغم انه لم يمر على هذه الحادثة سوى زمن لا يتجاوز الاربع ساعات.

حتى الوقت بات قاتلاً، علميا الدقيقة تساوي 60 ثانية وما تساويه الدقيقة من الثواني، تساويه ايضا الساعة من الدقائق، الأمر سهل، 60 ثانية تساوي دقيقة و60 دقيقة تساوي ساعة، هذا يعني ان فاجعتي بدأت قبل 240 دقيقة أي 14400 ثانية ، علمياً ما فكرت به صحيح، ولكنه نفسياً خاطئ لدرجة لا حد لها، ال 4 ساعات مرت وكأنها 400 عام، وال 14400 ثانية هي عبارة عن سكاكين تغرز في القلب تدميه، يا إلهي ، لقد كبرت 400 عام في 4 ساعات.

قتلني الوقت، الوقت هنا وفي عالمنا بشكل عام هو أصعب الظروف التي قد يمر بها الشخص، ثانية واحدة فقط قادرة على قلب مسلسل حياتك، كاملاً من سعيد إلى حزين، أو من حزين لشخص في أعلى قمم سعادته، الوقت هو العنصر الحقير من بين كل العناصر في هذه اللعبة التي تدعي الحياة، فالوقت اللازم لإخبارك أن شخصاً عزيزاً عليك قد مات مثلاً هو نفس الوقت اللازم لإخبارك بأن هذا الخبر إشاعة وأنه بخير، فالوقت هنا هو من يقتلك لا الأحداث، وكثيراً يحدث أن نموت في منتصف دقيقة، او ربما أعني في منتصف جملة.

صوت الباب يفتح يكسر الصمت والظلام أخيراً، يخرج الضابط، رافعاً رأسه وكأنه منتصر، ولا يعلم بأنه الخاسر الأكبر هنا ، فخرج خلفه، ثلة من الجنود وكأنهم قطيع أغنام ولا أقصد اي إهانة للأغنام في هذه الجملة، يتوزعون على كافة الجيبات العسكرية، ظننت الأمر انتهى وسأرى ما الذي سأوجهه، إلا أن خمسة جنود بقوا واقفين أمام الباب وبدأوا بفحص هويات الموجودين في الداخل، ثم بدأت سلسلة النداء على اصحاب الهويات، واستجوابهم ثم إطلاق سراحهم، استغرق الأمر وقتاً طويلاً جداً، فحقارة الجنود اتحدت مع عدد الأوفياء في الداخل، فأنتجت وقتاً طويلا شرقت فيه الشمس، لم تأت معه الحرية التي ننتظر، فقرابة ال 50 شخصاً ما زالوا ينتظرون قرار حريتهم المؤقت الصغير للوقت الحالي فقرار الحرية الدائم منا لا منهم وسيكون كبيراً وسنكون نحن المتحكمون في ذلك الوقت، وسيذوقون من نفس الكأس الذي يسقوننا منه الآن، كنت شديدة النعاس والتعب في تلك اللحظة، إلا ان النوم ابى أن يدخل عيني، وهل يعقل ان تنام العيون والقلب يئن ألماً، جسد واحد اذا اشتكى منه عضو اشتكى لله كله .

مرت الساعات بطيئة أبطأ مما ينبغي، صوت كل شيء في أذني، محرك السيارة، أقدام الجنود ، نداء الأسماء وطرح الأسئلة، تبديل أدوار الجنود، حتى صوت احتكاك أسنان الجندي الذي يجلس بجانبي كنت أسمعه، صداع جعل الشق الأيمن من رأسي يتآكل ألماً، عيوني غير القادرة على النوم تفتح وتغمض، حدّقتُ في كل الأشياء، إسورتي وزجاج السيارة وشمس الصباح، وجوه الخارجين من الرجال، وهم ينظرون إلي ويمرون واحداً تلو الآخر، نظرات فخر يرمقونني بها، وإشارات صمود، تفعلها يد من يتجرأ ولا يخاف إعادة التنكيل به والتحقيق معه، ومثلها نظرات الشفقة في عيون النساء، أحاول أن أفكر في أي شيء، فقط أحاول أن أتناسى الذي حدث وأتجنب التفكير، ماذا يفعل قصي الآن، أو بطريقة أخرى، أين هو جسد قصي الآن، وماذا يفعلون به، أعلم أن روحه باتت –إن شاء الله – في جنة خالقها، أعلم أنه مرتاح الآن ربما يراني ويتفاخر بتصرفاتي بين قوم الشهداء، ما أروع حظه، هل يجلس الآن بجانب ساجي درويش، هل يحده من اليمين الباسل ومن اليسار أشرف، هل رأى ابتسامة صالح حي اقبل عليهم، هل ناداه بهاء ، هل قال له بلال أهلاً بك بين جموع الشرفاء، هو الآن في الجنة بين أصدق وأنقى خلق الخالق، حدقت في ظهر الكرسي الذي يقع امام ناظري، انتفض جسدي كما انتفضت روحي وغاب عقلي ودخلت في حالة شرود، بعد ذلك السؤال الذي خطر على عقلي بعد كل الاسئلة التي جعلت من عقلي حفرة تتجمع فيها الأسئلة التي لا إجابة لها .

قاطعني صوت الضابط عن سرب الأسئلة التي اريد ترتبها في رأسي لأحاول أن أجد لها أجوبة، قاطعني وجعل عقلي يصحو من تفكيره ولم أجد إجابة على سؤالي الأخير، هل رأى قصي الله ؟؟
لطالما أخبرني في أحاديثنا الليلية التي كنا نحاول أن نهرب بها من النوم، أنه يحب الله، وفي كل مرة كانت تكسر فيها لعبة من لعبي كان ينظر إلي بابتسامته الجميلة، ويقول لي : لا تبكي الله يحبك، لأن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، رغم طفولتي وطفولته ورغم انه لم يكن يعي معنى هذه الكلمات، حتى انا لم أكن أعرف ما معنى كلمة ابتلاء أصلاً ولكنني كنت أمسح دموعي وارسم ابتسامة على وجهي لمجرد قوله ان الله يحبني، كان يكبرني بعامين من السن وبعشرة أعوام من الفرح ومئة عام من النضوج والفكر المتوازن والعقل الرزين، ، كانت كلماته تمثل لي الدستور وان اختلفنا، في كثير من الأمور في شخصياتنا وافكارنا، قال لي ذات مرة أنه يتصرف كل التصرفات التي ترضي الله لأنه يحلم ان يرى وجه الله، ختم أعماله بما يرضي الله ويرضيه، ويرضينا.

تحركت السيارة، أشعر باهتزاز في قلبي كلما اهتزت السيارة، الجنود يتكلمون مع بعضهم البعض، ويسخرون مني، المجندة التي تجلس بجانبي ليست لطيفة أبداً، كلهم كذلك، ما الأمر الغريب في أن تكون كذلك أصلاً.

الساعة الآن تقترب من الحادية عشرة ظهراً، كل الاحداث والتفكير والاختناق الروحي قبل الجسدي في أقل من 24 ساعة، بعد عدة دقائق وصلنا لمكان يبدو من الخارج وكأنه قلعة محصنة، اسواره الرمادية الأرقام الموزعة على جدرانه باللون الأزرق، الأسلاك الشائكة، فوق اسواره، جندي روسي الملامح واللون ينظر إلى الجيبات ويحدق في عيوني ساخراً، ثم يفتح البوابة للجنود كي يدخلوا بجيباتهم إلى الداخل.

بعد توقف دام لدقائق دخلت الجيبات إلى داخل ساحة كبيرة، تحيطها الجدران العالية من كل جانب حتى لا تكاد ترى السماء، جدران وأعمدة اسمنتية تصطف بجانب بعضها لتشكل سوراً عالياً، يمنع من في داخل هذا السجن من معانقة حلم لطالما اسموه مستحيلاً، الحرية.

نزل الجنود وذهبوا في اتجاه غرف لا أدري ما بداخلها ولم يبق سوى جندي واحد، يقف عند باب الجيب، ما هي إلا لحظات حتى عادت مجندتان، فتح الجندي الباب وأمرني بالنزول، رغم أنني أحسست بالذل بعينه، حين طلب مني النزول بطريقته الاستفزازية إلا أنني نزلت ولم يكن امامي إلا هذا الخيار، سحبتني المجندتان، وهو يمشي خلفنا، قبل ان أدخل إلى واحدة من الغرف، ناداني الجندي، أنت!!! التفت اليه برأسي، بعربيته المكسرة، قال " معك اشي ، جوال، مصاري" ثم اخذ يضحك وهو يقول دخان مثلاً، سحبت يدي من بين يدي المجندة وأدخلتها في جيبي، نظرة الخوف في عيونهم وهم يترقبون ما الذي سأخرجه من جيبي كانت كفيلة لأن تثبت من هو صاحب الأرض ومن هو الدخيل عليها، رغم انني لا احتاج إلى إثبات، سحبت يدي من جيبي بسرعة فانتفضوا رافعين السلاح وأخذوا وضعية الإطلاق،

فتحت يدي ورميت للجندي خلفي بعد ان لففت اتجاهي نحوه 3 عملات من فئة الشيكل وواحدة من فئة نصف شيكل وزر لقميص ثم قلت له "بشترولك اشي" وضحكت ضحكة حاولت فيها ان ارد له بقايا الاستفزاز التي بقيت عالقة داخلي من تصرفه السابق.
ثم التفت وسلمت قبضتي للمجندة مرة أخرى وقلت لها بلغة حازمة وبقلب يرتجف وثقة عالية، خذوني وين ما بدكم هلا، مش كثير خايفة يعني .

لا أدري لم قلت هذه الكلمات ولكنه ذات الكبرياء!

وصلت الى ممر كبير، اللون البني الفاتح في كل مكان تخالطه بعض من اللون ذاته ولكنه بدرجة اغمق على الأبواب، غرف موزعة على طول الممر، جنود ومجندات، يمرون ينظرون إليّ بنظرة استحقار وانا أجر خلف المجندتان، شعور الذل مؤلم، لأول مرة أجربه بشكل حقيقي، أن تجر خلف من يحتلون وطنك، هل تتخيل أنه من الممكن أن قاتل أخي مر من هنا بجانبي قبل لحظات مرور الكرام، مر بسلام وأمان من جانبي، وصلت إلى غرفة في نهاية الممر، أوقفتني المجندتان على حائط ملون باللون ذاته، وبدأوا بتفتيشي، دامت عملية التفتيش المكثفة لمدة تجاوزت الربع ساعة، بلغتهم الدخيلة، نادوا على شخص عرفت بعدها انه مسؤول السجن وقام بتكبيلي، شد اصفاده على يدي وقدمي ثم جرني في الممر ذاته، أنا لا أملك قدرة المقاومة أو الرفض، تماماً كنوع من الحيوانات ، هكذا شعرت نفسي في تلك اللحظة، أجر خلفهم كحيوان غير قادر على الرفض، حيوان بعقل يرفض وبقلب مكسور أيضاً .

اثناء المشي في ممرات السجن وانا تائهة لا أعرف أين يجرونني، تعمق التفكير داخلي، كدت أنفجر باكية وهي المرة الأولى التي اجرب بها شيئاً مباشراً من بطش الاحتلال، في سجونهم الآلاف من الأسرى أيعانون كلهم من هذا فقط، بالتأكيد لا ، فمعاناتهم تكبر معاناتنا بآلاف الأعوام، هل عانت كل الأسيرات من نفس الإجراءات أم أن معاناتهن كانت أكبر، لم أستوعب فكرة أن أقدم أسير لديهم ولد حين ولدت والدتي، وحين كان معتاداً على إجراءاتهم، أي بعد قضاءه فترة طويلة في السجون، نطقت هي كلمتها، الأولى وكبرت وتعلمت ثم تزوجت وعملت وجربت ألم الولادة وفرح احتضان ابنائها ثم فرحت بأول كلمة لابنها ورافقته للمدرسة واستمعت لبكائه ثم عاشت مراهقته وفرحت لنجاحه وها هو ابنها اصبح رجلاً واستشهد وهذا الرجل لا يزال قابعا في السجون بين أربعة جدران، وسرير حديدي!

يا لظلم هذا العالم الحقير، لا يوجد أكبر من الغصة التي تسكن قلبي عمره الآن 16 عاماً وحكم عليه بالسجن لمدة 38 عاماً، وملايين الشواكل كغرامة، هل تعرف لو أن دولة الاحتلال بقيت حتى هذا الوقت وحان موعد الافراج عنه، هل تعرف ما معنى أن يفارق أحضان أمه وهو في السادسة عشرة حين كانت تحضر له الفطور وتكوي له الثياب فيعود لها وهو عجوز او يزورها في قبرها، هل تعرف ما معنى أن يستقبل أخبار زواج اشقائه والصور، ودخول أطفال جدد على العائلة وهو بعيد لا يعرف أحداً منهم سوى بالأسماء والصور، أو أن يصل إليه خبر وفاة والده ووالدته وهو بين أربع جدران لا يستطيع وداعهم الوداع الأخير، سيخرج من السجن جاهلاً بكل التطور الذي حدث وهو يحمي كرامة شعب لا يلتفت له ولا يتعب نفسه بالنقر على ايقونة امامه على شاشته ليرى خبرا او تقريراً عنهم على مواقع التواصل

الاجتماعي، قليلون هم من يتذكرون الأسرى بلا مناسبة، بعد الان سأكون منهم ! مرة أخرى هل تعرف معنى أن يأتي لأحدهم خبر ولادة ابنته وهو في الزنازين، ولا يراها إلا من خلف زجاج مرة كل شهر، ثم يخرج ليجدها في الجامعة، أن تخجل منه في كل الأمور العادية كما تخجل من اي غريب، كنت أخاطب عقلي وأسأله، هل تعرف معنى أن يجلس الحكام في بيوتهم ويركبون السيارات الفارهة ثم يأكلون أشهى الوجبات ويخرجون ويسافرون وهو بين الجدران، ثم يعودون في مؤتمر صحفي يتحدثون به عن أهمية النضال ويمجدون إنجازات من يحمون كرامة الوطن! فعلاً، لا أعرف من باع الوطن ولكنني أعرف من دفع الثمن "

كيف لنا ان ننكر غصة كل أم شبل ابنها البكر بعيد عنها، أو زوجة تربي أبناءها بلا والدهم وأولاد يكبرون دون أن يجدوا سنداً لهم، كل هذه المآسي تبكينا بحرقة، فما بالك لو كانت الأسيرة أماً أو زوجة وإبنة، يا ليتنا نفكر مرة واحدة في كل هذه المعاناة القاتلة، يا ليتنا نعلم، وإن علمنا يا ليتنا نحرك ساكناً لأجلهم .

درج طويل أمامي، نزلت الدرجات الأولى بصعوبة شديدة، تعثرت وكدت أقع عدة مرات، كلما توقفت تماماً، بلا إنسانيتهم المعهودة لم يساعدني الجنود ولم أكن انتظر مساعدتهم أصلاً، فأنا كباقي الفلسطينيين أتعثر وأقع ثم انهض وحدي، فنهوضي حتمي وسقوطي مؤقت، دخلت إلى غرفة أخرى رمت إلي المجندة بلباس سجنهم البني أيضاً، ثم قالت لي ستبقي، لم افهم معنى الكلمة التي قالتها لي، ولكنني ارتديت ما عرفت لاحقاً بأن اسمه الشاباص، قام الجندي بتصويري صورة واحدة على جهازه كانت كفيلة بان تخرج له كل المعلومات عني، الاسم والعمر والأخوة والموقع،،، كل شيء، احتلال يملك كل هذه القوة العسكرية والمخابراتية واللوجستية وبرغم كل ما يملكه ولا أعرفه أيضاً فأن طفلاً صغيراً لم يتجاوز أعوامه الخامسة يرهبه ويقلق كيانه ويقلب نظامه رأساً على عقب ،دون اي انذار، فهم وهن ووهم .

درج وراء درج وممر تلو الآخر، حتى وصلت الى باب كبير جدا، يبدو أنها النهاية، أو يمكن أن تكون البداية أصلاً، فُتح لي الباب ودخلت إلى قاعة كبيرة جداً، تتكون من طابقين، الطابق الأول عبارة عن ساحة كبيرة حمراء الأرضية، تصطف على جميع جوانبها غرف بأبواب حديدية لها نافذة صغيرة في الأعلى ليدخل منها الضوء، حتى الضوء لم يكن يدخل بشكل كامل، أيضاً على نفس النافذة، كانت قضبان حديدية تقطع دخول الضوء، وفي الطابق التي ممر صغير جدا امام ابواب الغرف التي تشكلت

بنفس طريقة الطابق الأول إلا ان الساحة في الطابق الأرضي فراغ ويفصلها عن ابواب الغرف شبك حديدي عال وعملاق جدا.

هل نؤثم عند سماع الأغاني التي كتبها الشهداء، اقصد هل نحاسب على كل الأمور بنفس الطريقة، لطالما راودني هذا السؤال، هل يؤثم من يسرق ليطعم أولاده، كإثم من يسرق الملايين وهو غير محتاج، يسرق لأجل السرقة، فقط لا أدري، الأمر معقد جداً، ولكنني واثقة من أن الله لا يظلم أحداً، أعرف انه أرحم من كل قوانين البشر الغبية، أعرف أن كل هذا الذي تعلمناه في المدارس ما هو الا هراء، الله أكبر من هذا كله، الكثير من الأمور المبهمة في الدين وغامضة بالنسبة لي، ولكنني متأكدة من انني رغم عدم ارتدائي للحجاب مثلاً، وعدم التزامي بالصلاة كثيراً ونميمتي أحياناً، إلا أنني في وقت خوفي وحزني وقلقي وضعفي ألجا إلى الله فقط ، أقف بين يدييه، وأبكي، أنا الآن بحاجة لأيام طويلة من الوقوف بين يدي الله .

امرأة طويلة القامة نوعاً ما، حنطية البشرة، صب الله في عينيها لون العسل، امرأة تشبه الحلم، جاءت إليّ ترسم ابتسامة على وجهها، مقبلة من بعيد، وترحب بي رغم جمالها ولباسها الذي يدل على تدينها، لباس طويل أسود فضفاض، وحجاب رأس ابيض يتدلى على كتفيها، إلا أن قلبي انقبض فجأة خوفاً منها، لا أدري لماذا، ولكنها لما وصلت عرفت بنفسها، " أم أحمد" وأخذتني في جولة تعريفية على أقسام القسم الذي سأكون فيه، ثم أخذتني لغرفة تبين لي لاحقا أنها ستكون غرفتي " الأبراش أو الأسرّة" فيها متلاصقة ، 4 أبراش حديدية، تجعل من الضوء ان اراد الدخول اليها بطلاً، فدخول الضوء امر شبه مستحيل، ولا يفعله الا الابطال، حتى الضوء في بلادنا بطل، داخل الغرفة 3 نساء ام احمد ، المرأة المتدينة ذاتها ، ديما فتاة في منتصف عشريناتها، مجد فتاة مثل عمري او اكبر قليلاً، سألوني ان كنت أريد البقاء في هذه الغرفة ووافقت في حين كان عليّ أرفض، كان يجب ان أغادر منذ انقباضه صدري الأولى، ولم أفعل فازداد الانقباض في صدري، حتى انفجر، كثر الشد يسبب الانفجار، ويا ليته انفجر حقا قبل ان ينفجر بهذه الطريقة البشعة والصعبة، ربما كان الأمر صعباً، صعباً جداً ولكنني اعتدت الصمود في مثل هذه الأوقات، كيف وقعت حينها .

جلست اروي لهم تفاصيل حكايتي، اختلطت الأمور داخل عقلي وأنا أروي لهم ما عانيته وما المصاعب التي رمت بها الحياة على عقلي وقلبي، دموع وشهقات، أحرقت صدري وقلبي وعقلي وكأنني أعيش ذات المأساة الأولى لأول مرة، كنت منهكة نفسياً وجسدياً، التقطت انفاسي بصعوبة حين طلبت مني ام احمد

الاقتراب من سريرها والجلوس عليه وبحركة لا إرادية وضعت رأسي على قدمها ومددت جسدي المنهك الصغير على السرير واخذت بالتنفس شهيقا حارقا وزفيرا مميتا، لامست يداها شعري واخذت تمسح عليه وصوتها الجميل يردد " يارا الجدايلها شقر ال فيهن بيتمرجح عمر وكل نجمة تبوح باسرارا ".

كان صوتها يعصر قلبي، قاطعت تفكيري حين قالت لي: طيب شو عملتي لجابوكي هون؟"

اخافني سؤالها، فتجاهلته في المرة الاولى، ولكنها اعادت الكرة وسالت مرة اخرى، فقلت لها، ما قلته لكم، لم افعل اي شيء، حاولت ان تعرف ما هي التهمة التي اودت بي من حضن والدتي الى حضن امرأة غريبة بين أربعة جدران وبعض الأسرة الحديدية ، لم يكن لدي اي معلومة مخبأة فما أخبرتهم به هو ما حصل ، انهارت قواي امام ما قدمنه هن، وجعلت افكر كثيرا في قرارة نفسي، ما الذي جعلني اتي الى هنا وافتخر بإنجاز لم اقم به، هل انا متسلقة، كانت اسئلة كثيرة تجوب في راسي، بعضها كان مطابقا لحالتي، والكثير منها كان كبيراً على ما امر به ، كنت مشوشة التفكير حينها، لم اكن استهين بالقضايا الوطنية ابدا ، لذا راودتني الكثير من الاسئلة، التي تحمل في طياتها معاني ضخمة لا تقارب ما اعيشه انا في هذه اللحظات، ولكنه العقل البشري، تفكير قاتل اكثر من الضرب.

– أم أحمد

كما وصفتها سابقاً، امرأة متدينة جداً روت لي تفاصيل اعتقالها على انفراد كما فعلت الأخريات، لا أدري لماذا لم تقبل أي واحدة منهن ان تتحدث أمام الأخريات، يفترض أنهن صديقات بحسب مكان اقامتهن الحالي ولوكان اجبارياً عليهن.

بدأت تروي قصتها قائلة:

تم التحقيق معي لمدة شهر ونصف دون زيارة للمحامي لي، كل ما كان يشغل بالي هو ابني (احمد)، بدأت قصتي حين كشف أمر تخابر زوجي مع قوات الاحتلال ، لم أدر ما الأصعب خيانة الحبيب ام خيانة الوطن، وقبل ان اعرف الجواب صفعني به، فهو الذي كنت اعتبره ابا واخا وصديقا قبل ان يكون زوجا، في بلادنا حتى الحب يشوهه الاحتلال، حاولت ان اكتم الأمر، حتى استطيع ان اهرب على الاقل ضامنة سلامة طفلي، كنت ابكي كثيرا كل ليلة ، فمن يشاركني السرير والبيت والاحلام والمستقبل خائن لقلبي ولوطني، ربما قد تسبب بكثير من الاعتقالات ، وربما هو حرم اطفال جيراننا من والدهم، حين ابلغ عن مكان وجوده، وربما كان هو السبب في اغتيال احد الشبان الذين حاولوا تقديم معروف للوطن، فكان

معروفهم على هيئة رشاش وبضع رصاصات وجثامين نجسة، هو يعمل مع اشخاص يخرج السم من تفكيرهم فيشكل ثعابينا، تخرج من رؤوسهم مجدلة واصبحت تسمى فيما بعد السوالف، يعمل مع قتلة الاطفال والنساء، حاولت اخفاء الندبة التي تسبب بها وحفرت في قلبي كثيرا الى ان سمعته يحادث احد ضباط الاحتلال ليبلغه عن مكان شقيقي وعن نيته تنفيذ عملية استشهادية، فتحت الباب وكأنني افتح الغرفة التي منعنا طويلا من دخولها .

وصرخت بصوت جعله في البداية خائفاً، إلا أن ظهر الوحش الذي يكمن داخله، قلت له: ألا يكفيك ما تسببت به من ندوب، ألا تخاف الله، لن يحن عليك تراب الوطن حتى في موتك، ارتبك وحاول لملة الحدث وكتم صوتي، إلا ان صوتي كان عالياً كسائر نساء فلسطين، كيف لا وأنا منهن وهن مني، وما هي الا دقائق حتى صفعني الصفعة الاولى، ثم انهال بالضرب علي وكأنه يخبئ في صدره حقدا دفينا منذ ان تعارفنا.

قاطعتها صوت شهقات بكاء تخالط حزني، على ما نفقده من شباب ونساء كل يوم مع شعور احتقار لكل من يخون الدم والأرض والعرض ويقبل على نفسه عارا لا يمسح من تاريخه أبداً، أكملت روايتها، قام بحبسي في المنزل لمدة أسبوعين، لم آكل فيها إلا 4 مرات، حرمني رؤية ابني، إلى أن ألصق بي تهمة التخطيط لتفجير نفسي، أما عن فترة التحقيق، فلا يمكنني ان اصف ما حل بي حين رأيت ابني مرميا على الارض امامي يهددني ضابط الاحتلال بانني ان لم اعترف فانه سيقتلع اظافره الجميلة الناعمة وانه سيدوسه بقدمه، التي تشبه الدبابة، طلب مني التوقيع على لائحة الاتهام، بكل ما تحويه ، وفي المقابل يجعلني احتضن ابني، ولأني طلبت لائحة اتهام مترجمة، صعقتني بنودها، قتل وتفجير، وإطلاق نار، والتخطيط لعمليات " ارهابية في ارض اسرائيل" قاومت كل اشكال التعذيب النفسي والجسدي لمدة طويلة ، لحظة واحدة طلبت من المحقق ان ارى ابني ثم اقرر ما سأقوم به.

ادخلوه الى غرفة التحقيق مرتديا معطفا اسودا ويضع على راسه قبعة مثل التي يلبسها مستوطنوا هذه الارض، لم يغفر له وجهه الملائكي لديهم ولم يغفر لهم عذري بشاعة ما فعلوه، امسكت القلم دون تفكير ووقعت لائحة الاتهام، رغم كرهي لنفسي الا انني كنت سعيدة بانني سأحتضن اخيرا هذه القطعة من روحي، التي انشقت عنها وباتت تمشي على اثنين، وما ان لمس القلم الطاولة موضوعا فوق ورقة لائحة الاتهام حتى صاح المحقق، خذوه من هنا، وبالفعل اخذوه، عانقت دموعها كلماتها وهي تخبرني بكمية الوجع الساكن في قلبها، سحب الجندي لائحة الاتهام الموقعة قبل ان امسكها وامزقها، وضحك الجندي

في وجهي، وقال جهزي حالك، للمحكمة، لم احكم لغاية الان، صار لي في هذه الزنزانة عامين وسبع شهور، و4 ايام، لم ار فيها ولو مرة واحدة ، ولو لمحة، ربما بات يستطيع الكلام الآن، والمشي، وبدأت بالبكاء مرة اخرى، فما كان مني الا ضممتها محاولة لضم ما تبقى من قوة داخلي، وقلت لها الي امه زيك بكونش الا بطل ابن بطلة، ثم انهارت قواي وشاركتها البكاء والنحيب .

فكرت ان أسألها عن تفاصيل تعارفها على زوجها، وارتباطهما إلا أن حيائي في تلك اللحظة منعني بالتأكيد، ولكن سؤالي لم يكن يتعلق بقصتها هي وحدها، هل يمكن ان يفعل المتحابون هكذا لبعضهم ، بالتأكيد لا، لا اتخيل ان يفعل جمال امراً كهذا لسناء مثلاً، ليس من مبدأ الالتزام والوطنية فقط انما الحب ، الحب الصادق الذي يجعل كل شيء حقيقياً ولا مجال فيه للكذب ، لا ادري لماذا جمال وسناء، ولكنهما اصدق تجارب الحب التي اعرفها، الحب الصادق رغم كل الظروف التي عاشاها، لا يحب جمال لسناء الا ما يعجبها حبه لها صادق ما حبها كما اعتقد .

ان الحب كان له نصيب من قصة ام احمد كما اعتقد عقد قران اسمها وجسدها على اسمه وجسده، ويشكل المحور الرئيس للموضوع، اتمنى نهاية اجمل من هذه بكثير لجمال وسناء ، اتمنى ان يعقد قران قلبها على قلبه.

كان سؤالها عن تهمتي يتكرر كثيرا، الا انني لم املك ما اخبرها به، ولم ارد اخبارها بشيء كاذب، او ان استعرض بطولتي امامها، وانا لم افعل اي شيء في حياتي، ولم ارد ان اتسلق على دماء شقيقي بهدف الاستعراض.

اما عن ديمة، الفتاة في منتصف العشرينات، ولكن شكلها باستثناء عيونها يوحي بانها فتاة في السابعة عشرة او اصغر، اما عن عيونها فتبدو مثل فتاة تبلغ من العمر الف عام، ولن اكذب ان قلت انها الفتاة الوحيدة التي شعرت بارتياح لها، منذ النظرة الاولى ويا ليتني لم أشعر، اعتدت على صدق احساسي، في كل مرة فلماذا خانني هذه المرة، اخذتني ديما في وقت الفورة، وبدأت تسرد قصتها علي دون سؤال مني، قالت، انا طالبة في جامعة الشهداء، ادرس تخصص الفلسفة وعلم النفس ، انتمي لحزب " الجبهة الشعبية " ثم بدأت بذكر العديد من الأسماء التي لا اتذكر اي اسم منهم على حد قولها " مناضلون كبار" لم يكن من السهل على عقلي المشوش ان يحفظ أيا منهم، اردفت، حُكمت بالسجن 18 عاما على اثر محاولتي تنفيذ عملية طعن مع الشهيدة بنان العسيلي ، استشهدت هي وبقيت انا هنا اسيرة التفكير والحزن ولم أشأ

انا سماع تفاصيل قصتها فقلبي اكتفى الماً في اقل من يومين ، ولم تصر هي كثيرا على التفاصيل، بدأت الحديث، معها بشكل عفوي ولم انتبه ان معلومة من المعلومات الخاصة التي لم ارد لاحد ان يعرفها انزلقت من لساني عن طريق الخطأ، ولم تعر هي الموضوع اي اهتمام ، سألتني نفس السؤال المعتاد لهم وكان الجواب معتادا ايضاً " ما عملتش اشي "

أما عن مجد، شعرها قصير وتضع قرطا في انفها، بعد حديثي معها عرفت انها تبلغ من العمر سبعة عشر عاما، مثلي تماماً، كان حديثي معها الأطول والأعمق، وقبل أن تصدمني الصدمة التي جعلت روحي غباراً، كانت قصتها الأصعب والأجمل ، بدأت حديثي معها بسؤال واحد فقط، كيف كان حديثك امام ام احمد وديمة، هل اخبرتيهما بأي شيء يخص قصتك، كان جوابي : "لا، لا أملك شيئاً للحديث عنه"، بدأت بسؤالي عن أحوال الدراسة، وعن المناهج والصفوف، وما الى ذلك، كانت نبرة الالم في صوتها، ولمعة الحزن في عيونها، تجعل الدنيا تضيق بي في كل كلمة وتتسع مع كل ابتسامة لها، بدأت بإخباري بقصتها المأساوية، التي تزامنت مع بداية ربيع عمرها، تجعل منه شتاء باردا وتسقط أوراق الخريف فرحتها، كالخريف تماماً، انفصل أبي وامي عن بعضهما حين كنت في الثالثة عشر، عشت مشردة بين هنا وهناك، ولم يكن اي منهما يعرف ما بي حقا، حين قال لي اني سأفشل في حياتي القادمة كلها وكأنه ضرب قلبي بمسمار حاد، وحين طلبت من امي ان تحضر لي مفتاح لباب غرفتي كي استطيع منع ابن خالي الذين نقطن لديهم من التحرش بي في الليل دون استطاعة مني لصده إلا أن أتظاهر بالنوم حتى لا ترمى والدتي في الشارع ويتخلى عنها شقيقها، ظنت اني احتاجه كي استطيع محادثة عشيقي ليلاً، كان ظلمهم غير مبرر، وكان مؤذيا جداً.

وذات يوم استيقظت كي أذهب للمدرسة وبلا تفكير دخلت المطبخ ووضعت سكينا في حقيبتي وذهبت الى المدرسة، كمعظم الفلسطينيين اواجه حواجز الاحتلال في الطريق، عند الحاجز فتحت حقيبتي كي اعطيها للجندي لتفتيشها واستللت السكين وهجمت على الجندي، الواقف يحمل كل اصدارات الاسلحة الحديثة امامي ، كانت المسافة التي قطعتها تساوي 3 خطوات، في تلك الخطوات الثلاث رأيت صور والدي ووالدتي ابن خالي، كل اقاربي وأصدقائي، شقيقاتي وشقيقي، جدتي، كتبي المدرسية، حائط غرفتي، خلال لحظات كان الرصاص قد اخترق جسدي، كنت انتظر الموت، بدم رأيته امام عيوني، صرخت من فرط الألم في الجسد والروح، صرخت من فرط الألم الذي بات ينخر قدماي، وسألت سؤالا واحداً، ما زلت افكر فيه حتى هذه اللحظة، هل فعلت ذلك لأجل الوطن، هل يستحق الوطن هذا؟ عن

السؤال الأول كانت الاجابة واضحة، لا فعلت هذا من كثرة التراكمات، ولم اجد الا هذا المنفذ الوحيد ، اما عن السؤال الثاني، لم اجد اجابة ولا اعتقد بانني ساجد له اجابة ايضاً، قالت ايضا ان كل ما فكرت فيه في تلك اللحظة انني اريد احتضان والدتي او صديقتي ، ابي او اي شخص، اردت فقط ان يتوقف هذا الالم والصراخ، صرخت كثيرا، ثم هدأ كل شيء في رأسي، حتى الدماء بجانبي بردت، سكتت كل الأصوات، ثم سكت صوتي، بدأت الدنيا بالاسوداد امامي حتى تآكل الظلام في رأسي وغبت في مكان لا اعرفه ولا يعرفني .

استيقظت وانا على سرير ابيض مكبلة اليدين، تبكي امي امامي وتضرب على صدرها بيدها، ما ان فتحت عيوني وقبل ان انطق باي كلمة انقض الضابط على والدتي واخرجوها من الغرفة، ثم بدأوا بالحديث مع الطبيب، بعد 3 ايام اصبحت بالكاد قادرة على تحمل الالم رغم نقلي بظروف قاهرة لزنزانة التحقيق، هناك ذقت الحنظل بمرارته على شكل جمل اهانة واساليب تعذيب، لم فعلت هذا، من يقف وراء هذا الامر، كيف، لماذا ، اين اسئلة يصعب على راسي استيعابها، لم اجب على اي منها واستعملت جملة " يحق لي الصمت"، لم تعجبه اجابتي وضع يده على مكان الاصابة في فخذي وبدأ بالضغط ، لم يستمع احد لصراخي، بصوت عال قلت له ويا ليتني ما قلت ثم انهارت بالبكاء، ماذا قلت له، وقبل ان اجد اجابتي نادتني ام احمد قائلة اتت فتاة من التحقيق الآن، هل تستطيعين الحديث معها، بصدر رحب قلت نعم، أشرت إلى مجد بيدي ان تنتظر لأنني سأعود بعد عدة دقائق، استقبلت الفتاة وقلت لها قصتي وقصة من يسكنون الغرفة، ثم بدأت هي بإخباري قصتها، اسمها روز، متهمة بانتمائها لأحد الجماعات ، قالت بأنها على علم بعملية اطلاق نار ستحدث بعد عدة ايام على مستوطنة في الخليل وببلاطة ، فقلت لها ما قلته لام احمد ولديما ولا ادري حجم الكارثة وقتها وعدت للحديث مع مجد .

بعدها مد هدأتي كملي لي، قبل أن أكمل ما الذي حدث مع هاتان العاهرتان، كانت بداية صدمتي، في تلك اللحظة :

– من تقصدين ؟

– ديما وام احمد ، ما الذي قالتاه لك ؟

لا شئ، تحدثت مع الفتاة الجديدة " روز" ونقلت قصتها لام احمد وديما لانهما مشغولتان في تحضير غداء اليوم، لطمتني على وجهي وعادت لبكائها مرة اخرى، مجد ما بكِ؟ ما الذي حصل؟ حاولت لملمة نفسها وقالت : كل من في هذه الغرفة عملاء حتى انت، وستنضم روز لكم قريباً.

ما الذي تقولينه، تمزحين صحيح، قولي، بدأت حكايتي منذ ضغط الضابط على جرحي، قلت له لا احتمل الألم عشت فتاة مدللة رغم الجراح، افعل ما تريد أوقف الألم فقط، ترك قدمي ثم عرض علي فكرة ان اكون عميلة داخل السجن، رفضت بداية ولكنني وافقت بعدما عاد ليضربني ويبصق على وجهي، ولكنني حتى الآن لم أدل بأي معلومة واحدة ولكنني أحذر كل من يأتي كما فعلت معك، لهذا تكرهني ديما وام احمد، ولهذا حاولت ان اجعلك تبتعدين عنهم، ولكن يبدو ان الأوان قد فات، من الجيد انك لم تخبريهما بأي شيء قد يدينك في التحقيق القادم.

– ماذا؟ التحقيق القادم؟

وهنا لمعت في رأسي تلك المصيبة وبدموع تنهمر قلت لها اخبرت ديما بانني كنت اعلم عن نية شقيقي تنفيذ عملية.

يا لك من غبي ، أدنت نفسك وأدنت روز معكِ.

هدأت كل الأصوات في رأسي كعادتها عند أي مصيبة ثم عادت تنفجر من جديد، آلاف مؤلفة من الأسئلة، التي لا إجابات لها داخل رأسي، إجابات مفادها علي أن أصمد في المرحلة القادمة، في التحدي القادم، التحقيق.

وخزة التحقيق...

إن أكبر ألم ممكن أن يتخيله الطفل هو وخزة إبرة ، وخزة الإبرة تلك هي أعظم ما يؤلم قلبه ويديم روحه قبل جسده، لا أبالغ حقاً، تفوق الآلام الروحية والنفسية الآلام الجسدية ، ربما لو وُخِزَ هذا الطفل بتلك الإبرة سيستوعب أن الألم ليس بالحجم الذي يتخيله ولكنه حين يرى رأسها المدبب لامعاً أمام عينيه وكأنه وحش يقترب ليخترق جلده تماماً وكأنه مثقاب كهربائي، سيرتعد قلبه خوفاً، ربما جرب وخزة الإبرة ذاتها سابقاً سيخرس خوفه من الإبرة، ولن يقدر حجم المصيبة في ذلك في وخزة الابرة، وفي السخرية من شخص خائف، للأسف الشديد، كنت أنا طفلة في حين كانت الإبرة تتجسد على شكل تحقيق انتظره، أنا

لست خائفة من الوخزة فقط، أعلم بأنني سأتألم منها وانتظر لما سيأتي دون ان أعلم ميعاده، ولكنني كنت أعلم أنني في وقت قريب سأموت من وخزة تحقيق ستخترق روحي، والأصعب من ذلك أنني كنت أعيش في غرفة واحدة مع ثلاث عميلات، لا أستطيع الكلام حتى لا أودي بمجد في مصيبة كبيرة، رغم أخطائها، إلا أنها تحاول التعديل، وربما تستطيع انقاذ إحداهن، لو أنني أقول لأم أحمد وديما ما أعرف .

وأواجههن بالحقيقة التي اعرف، أسهل ما يمكن هو تعذيب مجد من قبل الضباط ونقلها الى مشاكل اكبر من التي تواجهها، وقد تصل بسهولة حد القتل، اضطراري الى السكوت وانتظاري التحقيق، دقيقة بعد دقيقة كان يجعل من وخزة الابرة سرطانا تنهش ما تبقى من روحي من بقايا الاحلام وفتات الامل.

لا أستطيع أن أروي تفاصيل انهياري حين اقتادوا روز الى التحقيق ، شعور قاتل بالذنب، رغم انني لم اقتل عامدة متعمدة، وإنما اقنعت بان القتل الذي اقوم به هو الطريقة الصحيحة والوحيدة للتخفيف عنها، اقنعت بان الدم الذي سينزل من جسدها سيكون من قوة السعادة والراحة التي ستعيشها، يا لي من غبية، كنت سببا في انهيارها، وسأكون سبباً وحيداً لا غيره في كل ما سيحصل معها، أخاف أن تدعو والدتها الله فتصيبني دعوتها، أخاف من انتقام الله لها، وأخاف من عقاب يمسني من دعوة والدتها أو إحدى شقيقاتها، " الله ينتقم من الي كان السبب "، أخشى حقاً أن أكون أنا السبب.

الساعة الثانية عشر تماماً منتصف الليل، تفكير طويل، عميق مميت، أنهكت روحي وتراكم اثر سهر الليل على عيوني، عيناي تغمضان وتفيقان، الهدوء قاتل، ذلك الهدوء المخيف، هدوء الليل الذي يأتي مثبتا لك بأن كل هذا الصخب داخلك وليس حولك، صوت الأسرة الحديدية يقرع في اذني مع كل حركة او تقلب تقوم به احداهن، هدوء تتمكن فيه من سماع صوت عقلك وهو يعلق مشنقة ضميرك على فروع اعصابك التي تشتعل نارا لتموت داخليا مشنوقا بأفكارك محترقا بتأنيب ضميرك مختنقاً باشتياقك، متسلحا برؤيتك المستقبلية وتفكيرك فيما سيأتي، قاطع صوت هذا العذاب داخلي صوت خطوات بطيئة تتقدم نحو الغرفة، ترج المفاتيح مع كل خطوة باب الغرفة الذي سيفتح حتما سيكون احد النائمين فيها بأمر لا يحسد عليه ابدا، وصوت المفاتيح وهي تفتح باب الزنزانة الحديدي قريب جدا ، صوت عبري غير مفهوم، دوى في الغرفة بعد صوت ارتطام الباب الحديدي " يارا ، وين يارا " ؟

قامت المجندة بجري الى مدخل القسم، كبلتني ووضعت كيساً في رأسي، كانت كلماتها ترشدني الى الطريق، يمين ، يسار، درج، انزلي ، اطلعي، كانت هذه ارشاداتها، الكاذبة التي تجعلني اقع او ارتطم

بشيء ما دون مقاومة مني، فحينها كان قد بلغ الذل أشدّه، الطريق التي لا أراها تشبه في عقلي الطريق التي دخلت القسم منها، صوت احتكاك أسناني ببعضها، قهراً، أصبح عالياً جداً داخل رأسي لدرجة انه فاق صوت ضرب اقدامهم الثقيلة بالأرض، أقدامهم ليست ثقيلة بسبب الأحذية التي يرتدونها، أقدامهم ثقيلة على أرضنا، لأنها ببساطة أرضنا ، تحبنا نحن، والمحب يتحمل كل ثقل الدنيا لأجل من يحب، صوت مشيتي الخافت، وصوت أقدامهم الصاخب، يبين انه كيف حتى الأرض في داخل معتقلاتهم تحبنا وتكرههم، تقبلنا وترفضهم، تضمنا وتنبذهم.

وصلت غرفة مغلقة، معتمة، ضوء خافت، مرتكز على طاولة يتيمة في الغرفة، ليس معها أحد غير كرسيين، الغرفة فارغة، رغم حرارة الجو الا انها باردة جداً، أجلستني المجندة، بعد أن نزعت الكيس الموضوع على رأسي عند باب الغرفة، دخلت قبلي، فتشت الغرفة الخاصة بهم قبل ان تدخلني، ليس خوفاً عليّ إنما لأنهم لا يؤمنون بصدقهم مع بعضهم حتى في أتفه الأمور، جلست على الكرسي ثم تقدمَت هي وربطت قدمي بيدي فأصبح جسدي كله مشدود للأسفل، وزاد الألم على كتفي أكثر من الحمل الذي أحمله من القهر والألم، نظرت إلي بنظرة شماتة، ثم أطفأت الضوء الخافت، وخرجت، تواردت على رأسي أفكار كثيرة، تتابعت من الأسوأ للأسوأ، كل شيء كان ممكن ان يفكر فيه العقل البشري فكرت فيه في تلك اللحظة، هدوء الغرفة، كان صاخباً، إلا أن ظهر لي شخص وأعاد إشعال الضوء مرة أخرى وضحك ثم قال لي ، أهلاً، بصوت خافت، وابتسامة خبيثة، لم يظهر منه شيء الا وجهه الحنطي، وعيونه الزرقاء، لا أكذب، صرخت خوفاً وحاولت ان اقف لأهرب إلا أن الكرسي والسلاسل شدتني مرة أخرى إلى مكاني، وشعرت بكتفي يخلع من مكانه، فقال لي مرة أخرى، أهلا ، سنتحدث قليلاً أنا وأنت، ساعديني لأساعدك، كوني فتاة محترمة ومطيعة حتى أفعل ما بوسعي لكِ. حتى تعودي إلى أهلك وحياتك الطبيعية.

أعود لهم؟؟؟ ينقصهم فرد فهلا أعدته؟ نظر إلي وحاول إكمال كلامه دون أن يظهر ارتباكه من اجابتي، اقترب مني ووضع وجهه في مكان قريب من وجهي، مستغلاً عدم قدرتي على المقاومة، ثم مد يده وبدأ بالمسح على شعري وقال لي انت جميلة ، لا تحتملين التعذيب والتشويه يا صغيرتي، انت جميلة الوجه، ثم سكت قليلاً ونظر الي وهو يعض شفته بنية واضحة، واكمل : وجميلة الجسد ايضاً، لا تحتملين ال..... ، وقبل ان يكمل جملته فاجأته ببصقة في وجهه لامست جبينه، سالت على أنفه، فضحكت ضحكة استفزازية وقلت له: أمطرت كأنها؟

حاول كتم غيظه، بابتسامته وقال لي: شكلنا رح نتعب معك، تتعبينيش.

فقلت له اتريد ان ينزل الشتاء على وجهك مرة اخرى، حاولت ان اكون مقرفة بقدر وقاحته وقذارته، عقد حاجبيه، ونظر لي بنظرة يظنها ثاقبة وستخيفني فقابلته بضحكة اخرى، وقلت له: حلو رقم 8 الي رسمته على وجهك، بتعرف بشو بذكرني؟

صمت قليلاً ثم قال لي "ها بشو؟"

فقلت له ضاحكة بعدد الحواجز التي اخترقها شقيقي، بسهولة شديدة، وطعن دولتكم كلها.

صدم كثيراً في الحقيقة ولم اكن اعرف أيا من هذه المعلومات ولكنني كنت اضع مخدرا على جسدي كاملا حتى لا يؤلمني جرح الابرة الذي ربما سيوخزنني، لم اكن ادري هل تجاوزت الوخز ام ان الابرة لم تقترب بعد، فحقنت نفسي بمهدئ حتى لا أشعر بشيء، كنت متأكدة من فعالية المخدر، ربما سيعمل او سيجلب لي جرحا اكبر، ولكن الامر لا يهمني الان فقد تجاوزت ما كنت اخافه .

رمى الي بورقة وقال لي قبل ان اكمل كلامي معك اقرأيها، ورقة بيضاء كتب عليها بقلم حبر ازرق باهت سطورا مائلة غير مرتبة، بخط فوضوي، لم اجادله، طلبت منه ان يفك يدي حتى اتمكن من قراءتها، فوضعها على الطاولة امامي والتف خلفي، ثم رفع الكرسي، الا ان لاصقت الطاولة وقال لي: الي كاتب الورقة بحبك بس هذا مستحيل يجي لعندك، لازم انت تروحي لعنده.

احنيت رقبتي الا ان تمكنت من بداية القراءة كنت اموت مع كل حرف، اقتل في كل جملة، بعض الكلمات كانت تقويني والأخرى كانت تميتني حية، حاولت ألا اظهر دموعي، الا ان الاصفاد، تمنعني من ان امسح ما تسلل من دموع خارج عيني حتى لامست الورقة، بعد ان تسقط دون مقاومة مني ومن خلال الحبر الموجود على الورقة كانت دموعي اشارات وفواصل تبين اين وصلت بالقراءة، ويا ليتني لم اقرأها، كمية الحب فيها كبير جداً، ولكن بعض الحب في الاوقات الخاطئة قاتل يؤدي الى الهلاك في اعظمه والى الهشاشة والضعف والانكسار في اقله، وهذا الحب كان من اعظم انواعه، هل اودى بقلبي الى الهلاك حقاً؟

كان المحقق يقف خلفي حين طلبت منه ان يقلب لي الصفحة حتى اكمل القراءة، وما هي الا عدة دقائق حتى نزلت دمعتي الاخيرة على اخر كلمة في الورقة " احبك" اخذت شهيقا ثم نظرت اليه وقلت

له: " طيب"؟ فأعاد الورقة الاولى وقال لي اقرأيها لي، لا اعرف قراءة العربية جيدا، اذا بتأثر عليكي وبتخليكي ضعيفة وزعلانة ما تقرئيها، بدأت بقراءتها متحدية قوله:

مساء الخير حبيبتي يارا، بعد عدة ثوانٍ أو دقائق لن يصبح للوقت قيمة، بالنسبة لي، سيتحقق ما وعدتك به بعد لحظات، انا اجلس الآن على مقبرة صهيونية، يفصلني بين بيوتهم والموت لحظات، ولكنني قررت ان اكتب لك هذا الكلام، لا اكذب عليكِ، انا خائف جداً، خائف ان لا يتقبل الله ما سأفعله، ثم أخاف أن أصل هناك فيزيد الخوف بي ويتملكني، وينتهي الأمر بي بطلاً عند الجميع ويمجدونني دون ان افعل شيئاً يذكر، لا تخافي ولا تحزني بعد رحيلي ان كانت ستصلك هذه الورقة او لا ولكن كل ما اريد ان اقوله انني احبك وكما يقول الشاعر الذي تحبين او على الأقل كنت تحبين قبل ان يرتكب جريمته التطبيعية، والكلام من كثره، عدا سكوت، اتمنى لو انك الان معي، اتذكر انا وانت ذكريات الطفولة كلها ونبكي من الضحك الشديد، ولكني الان على بعد خطوات من اهم خطوة في حياتي، يا مهجة قلبي وتوأم روحي، أما بعد يا صغيرتي المدللة ، ان وصلتك هذه الرسالة لا تخبري احدا بها، وان استطعت، ولم يغط الدم منها الكثير، فاعلمي انك شخصي المفضل ورفيقة افكاري وتفكيري ومخبأ اسراري، أخبري الجميع أن هذا قراري، ولن اندم عليه، حتى في اخر اللحظات، عزيزتي الحبيبة يارا، اياك والبكاء، افرحي عزيزتي فقد يقبلني الله، وقد نلتقي في اعلى درجات الجنة، احب المزاح معك اكثر من اي شيء، سامحيني اذا اغضبتك يوما او اوجعتك او احزنتك، تذكري الفرح بيننا فقط، اتمنى لو انني استطيع ان اجمع كل ذكرياتنا معا، في هذه الورقة، ولكنك تعرفينها فتذكريني ولا تنسي عزيزتي، اما الان يا نبض قلبي اوصيك ببعض الوصايا امل ان تتحقق وتكون سهلة :

1. لا تحزني ولا تيأسي ولا تبكي كوني فخورة بي كما انا فخور بك، لطالما كنت كذلك، لا اريد ان اكون سببا في حزنك حبيبتي.

2. لا تمجديني كثيرا ولا يغرك اسمي وافعلي كثيرا، فقد اكون غير مقبول عند الله ولا اريد ان يتحول المقبول من عملي رياء.

3. اياك ان ينسب اسمي لحزب معين او لدين معين، او لطائفة عن اخرى، لم يتحمل أحد معي الالم الذي كنت أكنه بسبب ما يدور من صراعات في الوطن، انسبي اسمي لفلسطين فقط.

4. لا تصالحي، ولا تسامحي، ولا تنكري عمر الأسرى خلف قضبان الحديد، ودم الشهداء الذي روى اشجار الزيتون، اياك والتفكير بان هناك سلام معهم ولو عصفت بك الدنيا.

5. توسطي في كل شيء الا في حب الوطن، تطرفي لأبعد الحدود.

6. الجئي الى الله في كل وقت، الله الذي نحب، لا الله الذي يرسمه لنا رجال الدين في مخيلتنا، وهو ينتظر ان يحرقنا، الجئي الى الله الغفور الرحيم الودود.

7. لا تجملي التطبيع بكل أشكاله، ولا تأكلي منتجاتهم، ولا تقربي محالهم، ولا تتقبلي مجرد اسمهم في اي مكان، ارفضيهم قلبا وقالباً.

8. اوصي كل من تحبين بان يطرد الحزن خارجه وان يرمي اليأس من شبابيك قلبه، وان كان هذا الحزن بسببي أبلغيهم بانني سعيد وليكونوا سعداء.

9. اعملي بوصايا كل الشهداء، فكلنا على هذا النهج، على هذا الدرب سائرون معا.

10. دومي بخير عزيزتي، لطالما قلتها لك، اما الان فأقولها لك دومي بخير بدوني عزيزتي.

في اخر الورقة كتب بيتا رددناه كثيرا سويا، "وللحرية الحمراء باب بكل يد، "

وغطت دماؤه الباقي من البيت،

ثم كتب قصي 2019، احبك يارا.

وهنا رفعت رأسي، والدموع تخنقني، وقلت خلصت شو بدك، فقال لي: لا شيء اريد فقط ان اتحدث معك كصديق، انفجرت ضاحكة، الم تسمع ما قرأته لك، قتلت أخي والآن أصدقاء، حمار، وشعرت انني ظلمت الحمار عندما شبهته به، نظر الي وقال ما بدك، اصدقاء، خلص بس ما رح تعجبك الطريقة الثانية تبعتي!

– هل ستكون مؤلمة أكثر من قتل شقيقي؟ صمت وقال يبدو انك ستتعبينني:

– نعم! لسنا لقما سائغة.

– صغيرة لكن اجوبتك كبيرة جدا، ما السر؟

– انه الحق، نحن على حق، ولا نخاف وهذا الذي يجعل اصواتنا تتدد عالياً فوق اصواتكم، وصمتنا يكسر صوتكم مهما علا، كنت اعلم ان كلماتي تزعزعه بقدر الزعزعة داخلي.

– طيب رح اسألك كم سؤال وجاوبيني عليهم بس، ورح اساعدك.

– لن افعل، ولن تفعل.

كنت عارفة عن العملية الي بده يعملها قصي من قبل صح؟

– بعرفش.

– ليش قصي كتبلك الوصية خصوصي الك لتخططي لاشي انتي كمان، يا لسذاجته، لو كنت اخطط، هل كنت سأقول له، اجابتي له كانت واضحة برغم التشويش داخلي: بعرفش.

هو مع اي حزب، يعني مين وراه، مين ساعده، مين ممكن خطط له.

الم تسمع ما قرأته لك، برضو بعرفش .

– انتي كلشي بعرفش، ولا اشي؟

كنت احاول استفزازه ونجحت، وعدم ادانة نفسي ولا ادري انجحت ام انني كنت مدانة اصلا لديهم، وما هذه الا مسرحية كاذبة لإضاعتي، صمت قليلا ثم بدأ بطرح الأسئلة بكثافة شديدة، اتحدث مع ارهاقي الجسدي الشديد، فجعلت مني حطاما من الداخل، ولكنني بقيت حجرا صلبا من الخارج، بدأ أسئلته بسؤال ، شو رح توخذي لما تسكتي، وقبل ان اجيب طرح السؤال التالي فالذي يليه، حتى وصل عدد الاسئلة لعدد لا اعرفه، كيف وين ليش مين، شو رح تستفيدي ، بتعرفي انه اخوكي مجرم، اخوكي فكر انو بيتكم رح ينهدم، انتو وين رح تعيشوا؟ انتي بتحبيه؟ بتفكري تعملي زيه؟ طيب؟؟؟ شو رأيك؟؟؟؟

طيب لو جبنالك أمك وابوكي هون وعملنا فيهم نفس الاشي، ابوكي رح يتحمل ضرب، اخوكي ارهابي صح؟ مين ساعده؟ كيف خطط؟ عنده مشاكل نفسية؟ عنده مشاكل في العيلة؟ بعاني من اكتئاب او تنمر؟ باي اشي ممكن يوصله لهون؟

وبكلمة واحدة اجبته: بعرفش.

في تلك المواقف الصعبة حيث تتزاحم العبارات داخل العقل وتدخل النفس في حالة لا وعي غير منطقية، وحيث تتزامن ازمات النفس والعقل والقلب وتتوقف الحواس عند شيء واحد، الصوت يرفض الخروج من العقل والصورة تأبى ان تفارق العين والملمس يعلق في اليد والذاكرة، حين ترفض ان تتخطى وبالوقت ذاته لا تستطيع الحديث عن الالم الذي يغزوك مع احد، فالكل هنا اعداء، غير موثوقين ابدا، حتى من تظنه صديقاً، ما هو الا عدو مبطن، حين تهلكك الأسئلة، الكثيرة وتربكك نبرات الصوت المتقلبة العالية تارة والخافتة تارة اخرى، وحين يمسك احدهم قلبك ويعصره ويضع احماضا على جرحك وكيماويات تحرقه اكثر من حرقته الأساسية، ويجتمع كل الألم، وتتحد كل الصرخات، في حنجرتك، وتتجمد الدموع داخل عيونك، ويجتمع عليك الكلام والسكوت، اصبح محالا ولكن كل كلمة تقولها تدينك، ستدينك، يجب ان يكون الجواب كلمة واحدة " بعرفش " انف كل كلمات عقلك وضعها على لسانك، قاعدة وحيدة لا شواذ لها، بعرفش، اياك ان تتكلم، ولو تطلب منك الامر ان تتحول جمادا، لا يرى، ولا يسمع ولا يتكلم، فالكثير يترتب على تفوهك بكلمة واحدة، اهمها انك قد تخون وطنك،.

إذا ما خانتك كلماتك لا تقل خيرا ولا تقل شرا، اما ان تصمت او بعرفش.

كان يجول في رأسي سؤال بألف صياغة دون أجوبة، كيف صمد الأسرى في التحقيق، كيف لم يبالغوا في آلامهم، كما أفعل أنا، كيف استصغروا، كل ما يدعى ألماً، وقفوا في وجه كيانات الظلم والقهر والعذاب، ما أصغرنا وما أكبرهم، ما أكبر أوجاعهم أمامنا، يحولنا صمودهم الى عدة نملات ولو كان عددنا يفوق الملايين، ثم يسحقنا جسديا وروحيا وينهكنا بذنب نحمله على عاتقنا طالما حيينا.

– ماذا إذا، مش رح تحكي؟

وكان جوابي مغايرا هذه المرة عن ال " بعرفش" المعتادة، ثم نطقت شيئاً وظللت صامتة، أفكر في هذه الخيبات التي تغزونا، وحين أقول خيبات، لا أقصد بها تلك الخيبات المعتادة، هل جربت ان تخسر أرضاً فالألم أن يقتل حلمك، هذه الخيبات وغيرها، لا تقارن بحزن فلسطين، العراق، فلسطين، سوريا، هم خسروا أوطانهم، خسروا القلب الكبير الذي يحويهم، خسروا أهلاً وأرضاً وشعباً كاملاً، ما الذي خسرته انت شخصا عابرا؟ حالياً المبالغة سيئة يا رفيقي .

كان يحاول ان يخطف مني كلمة واحدة ولم يستطع، كان كلامي سيقتله، وكان صمتي يقتله وكانت حجارتي كما كوفيتي تقتله، وشعبي يقتله ايضا، وكل شيء في وطني يقتله، ورصاصاته تقتل كل شيء في وطني حتى الابتسامة.

ساد الصمت بيني وبينه دقائق، ثم نطق هو، قال متوعداً لي:

– يا بتحكي، يا برميكي بزنزانة فيها رجال ما شافوا انثى من زمان، ثم قرّب يده من وجهي ملامساً اياه بطريقة استفزازية وقحة واكمل قوله، وانتِ بنت حلوة، حلوة كثير، واكيد رح يوكلوكي، ثم امسك بخدي مستغلاً ضعفي، وقلة حيلتي، وقال تحكي ولا اخليهم يوكلوكي ويسرقوا اغلى اشي عندك؟

لا أدري كيف استجمعت قواي في تلك اللحظة وقلت له: حكي مش حاكية، واعمل الي بدك اياه، بتفكر هيك رح تخسرني شرفي وازعل؟ انا رح ازعل لو خسرت شرف إني من هالبلد وحكيت لك اشي، ثم استعنت بجملة قرأتها في كتاب من الكثير مما قرأت، وقلت له:

– بعد شرف البلد فش شرف!

فضربني ضربة اسقطت كل ما نفسي ارضاً، ضربني فبصقت عليه ثم انفجرت ضاحكة بشكل هستيري، ضحكت بجنون، حتى دفعه ضحكي الجنوني للضحك، ضحك هو ايضا بشكل هستيري الا ان بكيت، وصمت كلانا، صمت هو تعجبا من كل شئ وصمتُّ انا لاعنة كل ما في هذا الوطن من أشياء ومسؤولين توصلنا الى هذا الحال، الى ان نجلس امام عدونا بلا حيلة ونضحك، بغض النظر عن نوع الضحك وسببه .

الأساس ان نجلس هنا اصلا معا؟، فموقعه هو خارج أرضي وموقعي، انا هناك في مدرستي، وبين صديقاتي، لا أن أقارع الألم هنا، وأنا في تلك اللحظة غير مبالية بأي شيء في هذا الكون! هل تعرف عمق المأساة، يبدو أن المرء لا مبالٍ، وغير مكترث، بينما في داخله جحيم يفور.

جرني اثنين من العناصر القذرة هناك بعد ان نادى صوته أمرهم " خذوها"، ثم اتبع كلمته بشماتة ظهرت على صوته " ع انفرادي رقم 13 "

في انفرادي رقم 13

الظلام يأكل المكان هنا ، لا مكان للضوء، لا تميّز ليل هذه الزنزانة من نهارها، لا تتجاوز مساحتها الأربعة أمتار، جدرانها تروي الآلاف من قصص الصراع النفسي لمن سكنوها قبلي، رائحة الموت تنبعث منها، ويوجد على طرف بابها الحديدي الكبير أوراق وقلم وفي زاويتها العلوية، بقعة غامقة تكاد بالكاد ترى لونها المختلف قليلاً عن باقي هذه الغرفة، لا أدري لماذا هذه البقعة بالتحديد، ربما من تبخّر أحلام ساكنيها تراكمت هنا، وأخشى على أحلامي أن تتبخّر إذا ما طالت إقامتي هنا، أقام غيري هنا آلاف الأيام ولم تتبخر أحلامهم، فهل سأكون مِمن صبروا أو أنني سأتآكل داخل نفسي، وأرمي فتات أملي وأخرج ؟ من يدري!!!

ما الذي سيحدث هنا، هل سيقف الظلام في صفي أم في صفها، من سينتصر، الظلام معي ام "13" والظلام هي التي ستنتصر؟

لم اعرف شيئاً حينها إلا أن الساعة الكبيرة المعلقة خارجا أصدرت صوتاً حين دخلت الى الزنزانة معلنة عن انتصاف الليل، تماما، حاولت أخذ زاوية اجلس فيها الى حين أن يأتي امر الافراج، المرتقب، لا مكان اجلس فيه براحة هنا، في اي مكان اجلس فيه ترتد قدماي عن الحائط لصغر الغرفة، الا ان وجدت نفسي اجلس بشكل قطري على الأرض الخشنة حتى أستطيع مد قدماي، ولم استطع تماماً أخذت الكثير من الوقت حتى استطعت اعادة كل شيء حدث في اليومين السابقين، مرت وكأنها ألف عام، مصيبة تلت الأخرى، والمصيبة الأكبر التي عادت الى ذاكرتي الآن بعد ان شتتتها باقي المصائب " قصي"، بدأ كل شيء يترتب في رأسي، ويتبعثر في قلبي، حاولت ان لا أفكر في شيء حتى لا أنهار، حتى لا أسقط أمامهم، أمام أساليبهم، التي تبوء بالفشل، كل مرة امام جبروتنا، امام غضبنا، امام عزمنا، وقسمنا بالصمود، لو راينا الدنيا تتلاشى من حولنا، لا ادري ما القادم، ما التالي، لا أدري هل سأموت أو أحيا بعد هذه المحنة، هل سيبقى للأمل سبيل لدخول قلبي ووطني، ام ان ما سيحدث هو الذي سيحدث لسائر النكبات في وطني، حزن ، نسيان.

بدأ التفكير يدخل رأسي رويداً رويدا، وصايا أخي، التي حفظتها بمجرد قراءتي لها مرتين، وأردت أن أرد عليها ولو داخل رأسي فحين قررت الرد عليها قررت أن أتحمل كل الألم الذي سيأتي من هذا الفعل وفعلت.

أخي العزيز، إليك تلك الرسالة التي لن تقرأها يوماً، كتبت هذا السطر على الورقة الموضوعة بجانب حائط الموت في الزنزانة، اليك تلك الرسالة التي تحمل في طياتها الاف الاطنان من الحزن والملايين من الشوق ومليارات التساؤلات التي لا تنتهي، اليك يا شقيق الروح من جسدي، تقول لي الا أحزن أخي، كيف لا وأنا أنظر اليك في ذاكرتي تلهو وتبتسم وتقذف روحك الجميلة في كل مكان ، فخورة بك حباً رغم حزني وحزني يزداد لأني لا أستطيع أن أكون فرحة لفراقك كما توصيني، ولا أخالفك الرأي، لله وحده صلاحية قبول الأعمال أو رفضها، ولكنني متأكدة بأن نيتك لم تكن رياء، وأن الله واسع العلم عظيم المغفرة سيقبلك ويزداد حزني الان لأنني مضطرة لتمجيدك، فمن الأولى بالتمجيد، انت أخي أم سياسي يبقر كل بطون الانسانية والأخلاقيات ويرديها قتيلة؟ لن ينسب اسمك لحزب معين ولا لدين او طائفة، لا أعرف ان كانوا قد نسبوه وانا داخل الزنزانة، أصارع الوحدة وتصارع أنت برد الثلاجات القارص وهم ينسبون الاسماء والافعال لهم، لا أعرف إذا فعلوها، ولكنني سأحارب كل من يفعلها حين أخرج من زنزانتي.

هذا إذا ما خرجت، أما عن المصالحة أخي فأقول لك، أنني هجرت مشروبي المفضل لأنني علمت أنه منتج من الخلايا السرطانية التي تنتهك جسد وطننا، وأنني حاربت أغلب اصدقائي لأنهم ما زالوا يتناولونها، أخبرك بأنني أكره اللون الأزرق والأبيض لأنه ينتمي لهم، وأكره كل من يخرج عليهم فيأمن لهم ويصافحهم، وأنني أدعو الله كل ليلة ألا يقبض روحي إلا وفي رقبتي مثلك دم صهيوني، فلا توصيني غلا بالثأر، وأعدك أنني سأثأر، أما عن التطرف، أخي فنحن تربينا في نفس البيت ، شربنا من نفس الماء وتلقينا التعليم ذاته وقرأنا الكتب ذاتها، فإذا تطرفت أنت في حب الوطن، تطرفت أنا فلا يعقل أن نُزرع في نفس التربة ونسقى من نفس الماء، وينبت منك زهر وتنبت مني أنا الأشواك، أنا مثلك تماماً متطرفة في حب الوطن لحد كبير جداً.

هل تذكر أخي حين تعرضت لكل انواع السخرية الموجودة في العالم والآلاف من الكلمات الجارحة كل يوم لأنني قررت ارتداء الحجاب حباً لا إرغاماً ولم آبه، هل تذكر حين وجدتني أقرأ القرآن والأناجيل والتوراة، قبل أن أخطو خطوة واحدة كهذه وأنا أعرف أنني سأتعرض لكل هذا؟ كنت

حينها قد وجدت الله الحقيقي لا كل الذي تعلمناه، ولا كل الذي كنا نعرفه، من تعاليم شديدة ومميتة ، أنا وجدت الله في قلبي فوجدت اللين والحب ولم أجد سواهما، أعرف أنني لست ملتزمة بكل ما يمليه الله، علينا ولكنني أحاول، اعرف أن الله لن يعذب شخصاً آمن به وبكى له في ليلة عجز فيها عن مناجاة غيره، أو من تحمل الألم فتكور في فراشه كقطة صغيرة ضلت طريقها وأضاعت والدتها فبدأت بالبكاء بصمت تقشعر له الأبدان، وتنفطر له القلوب ، الله لا يؤذي، شخصاً لم يؤذ، أتخيلك الآن بجواره، مبتسماً فرحاً بشوشاً، بجانب الله العظيم، الذي لم نعرفه يوماً معرفة حقيقته، أما عن التطبيع فأنا ألعنه كل يوم صباح مساء، والعنه الآن وغداً، وبعد غد والعنه في كل حين ووقت، تمنيت لو انك تراني وانا أبصق في وجه الضابط، لتكون فخوراً بي، وتنسى أنني وقبل خمسة أعوام أو أكثر لم أتجرأ على رمي قطعة حلوى اعطاني اياها الجندي على حاجز الا بعد ان ابتعدنا مسافة اختفت فيها اضواء الحاجز، فخرج صوتي أخيراً، قائلة (بدناش كعكاتكم يا كلبين)، بعد ان ألقيتها من النافذة فاتخذتها نقطة تعايرني بها لمدة طويلة جداً، تمنيت لو أنك تراني الآن، بت أكرههم أكثر ولم أعد أخاف الخوف ذاته الذي كنت أشعر به، قبل سنوات، الخوف من الموت اذا ما "طخني " الجندي، فالآن أنا مستعدة للتضحية بحياتي في سبيل الوطن، في سبيل أن أحيا بكرامة لا تهمني رصاصاتهم، الآن أبداً وإن طرزت كل جزء من جسدي ، وبجانب أنني سأفدي وطني بدمي ولن اقبل ذلاً ولا هواناً، سأكون بجانبك، أما عن الحزن يا حبيبي، فكيف يقنع الغريق الآخرين بجمال الماء، كيف يطيق الحزين ان ينشر الفرح إذا ما تغلبت على حزني، فسأحاول أن أجعل الآخرين مثلي، فرحين باستشهادك، فرحين باستشهادك، رددت الجملة مئات المرات في عقلي، الآن دقت الساعة معلنة انتهاء الساعة الأولى داخل هذه الزنزانة، فرحين باستشهادك ! يا لغباء هذه الجملة!.

أما عن الوصية التاسعة أخي، فإليك تعريفاً عن نفسي التي تعرفها جيداً، كنت كتبتها في عقلي اثناء مروري بكل هذه المراحل، هي حالة من الحالتين، إما أن الشبان أشعلوا العجلات بعدد كبير أو أن رائحة احتراق روحي من فرط الحزن أيقظتني، لا! لا يمكن لرائحة النار في داخلي ان تتسلل من النافذة وتخنق أنفاسي، عادوا مرة أخرى ، الجنود هنا، كم مرة قلت لتلك الصغيرة المعتوهة المدعوة أختي أن تغلق النافذة، بعد أن تنتهي من تأملها في اللاشيء ، أغلقت النافذة غير مكترثة لاقتحامات الجنود شبه اليومية، وعدت للنوم وكأن شيئاً لم يكن، لم أكن كذلك قبل بضع

شهور، كان أمر الاقتحام بمنطقتنا شيئاً نادر الحدوث، ثم بدأ يصبح معتاداً، حتى أن الشبان اعتادوا فلم يعودوا يقاومون كالأيام الأولى، لا أدري هل الاعتياد يفعل ذلك أم أن حالنا كحال سائر العرب، نقاوم ثم نستكين في ستة أيام، لا أدري، الساعة الثالثة فجراً، ليس وقتاً للتفكير أصلاً، العودة للنوم ومحاولة اكتساب نصف ساعة من النوم صباحاً، تساوي ثلاثة أرباع حكامنا العرب، وإذا زادت النصف ساعة خمس دقائق اكتملت الأرباع الأربعة، وليذهب الحكام إلى الجحيم، عمري سبعة عشر خريفاً، وطولي متر وخمس وستون وجعاً، نادرة البكاء، المتوسط القلبي لبكائي يتناسب طردياً مع عدد الجروح في وطني، النسبة المئوية للأسرى تبكيني، أعداد الشهداء تدميني، ولهذا أكره الرياضيات جداً، متيمة بالوطن والكتب والشهداء، متفائلة بالحياة إلى حد ما، لي 100 صديقة وأكثر، أبتسم لهم كلهم، أحادث النصف، أعرف أسرار 20 ويعرف أسراري 10، أخرج مع 5 وفي المشاكل 2 وفي وقت الضيق كان أخي، يمدني بهرمون التفاؤل والحب والسعادة ولا يكترث بجنوني وغضبي وأنانيتي، جميل لدرجة بررت كل هذا القبح الموجود في العالم، أتمنى وأحاول أن أكون نسخة منه في كل شيء، ويكفيني شرفاً أن ملامحي سرقت من ملامحه الكثيرة لدرجة أن من لا يعرفنا يضحك من كثرة الشبه بيننا، اصبحت ملامحي بعده من الحزن والتعب تكبره وملامحه التي كانت من الحب تصغره، فيصغرني أو نتساوى بالعمر كثيراً، غابت عن ناظري، كان يرى الحياة بتفاؤل كبير، منذ أن كنت في الخامسة وهو يقول لي في العام القادم ستتحرر بلادنا، وإلى اليوم الذي سبق فقداني له قال الكلام ذاته، أخي ! قف أرجوك! نحن في العام 2019، صوت معزوفاتك، الموسيقية دبابات وطائرات أباتشي، تقصف دمشق، زهورك قنابل عنقودية تضرب اليمن، الغداء الشهي الذي سيجمع الكل بحب على مائدة التفاهم والأخوة، يخون اليمن ويقتل اطفاله جوعاً، وما زال الكل يأبى الاجتماع ويرفض التفاهم، أقزامك لم يعودوا طيبين بل أصبحوا اشراراً، يطلقون الرصاص على المصلين في الأقصى، وحتى شجعان البلاد وأحفاد صلاح الدين أصبحوا مثلك أخي شهداء، أسرى ثلاجات تلسع البرودة عظامهم فتجمدنا نحن|، فالله قال للبرودة أن تكون بعكس كل شيء دفئاً وسلاماً على أجسادهم لتصبح ارواحهم دافئة، فاستيقظ من تفاؤلك الأحمق هذا أو ابق في وهمك المحفور ذاته، لا يهم فقط استيقظ .

فهل يعقل أن أحب الشهداء حباً جماً كهذا ولا أعمل بوصاياهم؟

أما عن الوصية العاشرة، فلماذا تصر أن تضربني في المكان الذي أتألم منه أعرف أنك ذهبت وسأكذب إن قلت لك أنني بخير بدونك، أنا أصارع ألم الفقد وألم الموت وألم الحياة دونك، كيف سنزيل آثارك من أرواحنا؟ كيف سنمسح ضحكاتك من أرصفة الشوارع ليلاً وكيف سنعيد للأشجار صوتها بعد أن علق صوتك بها، وكيف سنخبر المقعد الذي كنت تجلس عليه والكتب التي كنت تقرأها بفقدانك، كيف نخبر الآخرين بأنك رحلت، كيف سنوقف حزن المآذن حين تنادي عليك، كيف سنجبر قلوبنا؟ سأحاول أن أدوم بخير بدونك مع أن الخير كله كان في وجهك ، ووجهك رحل عن الأرض، ولم يبق إلا بصمة في الذاكرة ، أحبك أخي سأردد دائماً " وللحرية الحمراء باب بكل يدٍ مضرّجة يُدَقّ " أحبك مرة أخرى شقيقتك يارا ، زنزانة رقم 13 حيث تسكن هي ويسكن الظلام، وفي نهاية كتابتي لهذه الرسالة مزقت الورقة وصرخت كثيراً، ثم بكيت إلى أن دق جرس الساعة معلنا انتصاري على ساعة اخرى من الليل، بدأت الظنون تدخل عقلي، وبدأت الأمور تصبح أكثر سوداوية، الان في نظري، الآن ربما سيسكنني الظلام، وربما بدأ غزوه على ما تبقى مضيئاً، من روحي، الليالي الأولى الخالية من كلماتك، ضحكاتك وصوتك، دموعي، الحارة التهمت خدي وجعلت منه رماداً، اشم رائحة يأسي تخرج مع أنفاسي، وها هي أفكاري بدأت تتحول إلى تشعبات كشبكة عنكبوت في زاوية هذه الغرفة المظلمة ، أشعر الآن بقلبي ينتزع مني، وأشعر بدمائي تتحول إلى سم داخل جسدي يقتلني، ظلام الليل وخيوط الفجر اللذان لا أراهما وصوت دقة الساعة تراقب بكائي وتلعنهم، صدى ضحكك وكلامك يدور في رأسي كالدوامة التي بدورها أيضاً تقتلني، لطالما كانت روحي بين يديك وهي الآن تنتزع ، كانت تخرج روحي كل ليلة وأنا نائمة للغرفة المجاورة التي كنت تنام فيها أنت أيضاً لتعانقك وتعود أيضاً وأنا نائمة، كانت تأبى مفارقتك حتى في نومها، أما الآن أنا يقظة ولم تعد روحي إليّ بل بقيت أسيرة لديك وسافرت كما سافرت روحك أنت أيضاً، وتأبى روحي العودة وترفض روحك الرجوع أيضاً، ، فها أنا الآن أحيا بدونها أنتظر عودة روحي وروحك سويًا أو مغادرة روحي وخروجها بدون عودة، انطفأت شموع الأمل في روحي ووهنت وتساقط الفرح من حياتي الآن، كل ما في الأمر أن كل الأمر يقتلني، تفاصيله، تفاصيل التفاصيل فيه التي لا أستطيع تخيلها ولا النطق بها لشدة فظاعتها، لشدة قسوتها على قلبي الذي لم يتحمل قط ألماً كهذا، لم يتحمل قط ألماً حقيقياً، بدأت أحس بسخافة أوجاعي السابقة التي كنت أظنها في كل لحظة صعبة لأنني وفي لحظات ما لحظات الالم كنت أموت داخلياً، ولكنها الآن رغم إيماني بشدتها باتت الآن أموراً تافهة لا يجب

الشعور بها رغم أنني مؤمنة أنها حقيقة، ما الذي أقوله؟ بدأت أناقض نفسي، بدأت أجنّ وأنا هنا في الظلام، بدا التعب يدقّ في جسدي ويضرم به النيران، كيف لم أنتبه لعدم تناولي أي طعام منذ ما يقارب اليومين، كيف تتسابق الأوجاع على إنهاكي وتتهم بعضها بعضاً بالتقصير، إذا لم تسحب كل واحدة منها كل ما في قلبي من قوة أو ما تبقى من قوة، بدأ رأسي بالدوران، أشعر بأن كل شيء حولي له أسنان وعيون ويريد الهجوم عليّ، المكتبة والكتب الموضوعة أمامي، النافذة الزجاجية، حتى ضوء الشمس يحرق عيوني، سقف الغرفة المزين بالألوان، ثريته المتدلية ترتطم برأسي، وبلوراتها تعكس فرحي، على الحائط قوس قزح بألوان الحياة، دقت الساعة مرة أخرى فتلاشى كل شيء، في رأسي وعاد كل شيء إلى مكانه، وتبخرت كل الأشياء التي تراءت لي، وقفت رغم تعبي، نظرت إلى الحائط ثم بدأت بضربه في محاولة جادة لهدمه، محاولة جادة خالية من المنطق تماماً، جادة ولكنها ليست حقيقية، بدأت أضرب الحائط بكلتا قبضتاي وأركله بقدمي المتعبة أيضاً، بدأت قواي تتلاشى، وصوت الصراخ في رأسي بدأ يهدأ ، بدا الصوت يصبح خافتاً أكثر فأكثر، هدأ الصوت تماماً داخل رأسي تماماً، أسندت ظهري إلى الحائط، وبدأت أسقط رويداً رويداً، إلا أن لامست الأرض، كل شيء الآن في راسي هادئ، صمت كل شيء، الأصوات داخلي وجدران الغرفة والباب، أنزلت رأسي حتى لامست ذقني جزءاً من رقبتي وسكنت، ثم صرخ الألم داخلي صرخة بعثت الالم ثانية ، حتى ضربت رأسي بالحائط بقوة لا ادري من أين انبعثت ثم نمت!

ضوء أبيض أراه في كل مكان أرى نفسي في نفسي، أمشي في طريق طويل لا خيار غيره، كل شيء يبدو جميلاً، كل شيء يبدو مستتباً في رأسي، يظهر من بعيد، وجهه ازداد جمالاً، ازداد إشراقاً، ثوبه الابيض ووجهه المزهر، أعاد كل شيء في قلبي، إلى حاله بعد حالة الامتعاض المميتة التي مررت بها، عندما رأيته هدأ كل شيء في رأسي وأحسست بالنجوم التي لا أراها تسقط أرضاً وتزين ابتسامته، نسيت آلامي كلها، تبدلت ملامحي المتعبة إلى ملامح طفل في السابعة من عمره، نسيت كل الأصوات، الرصاص، القذائف والبنادق، كل البدلات العسكرية الزيتية ومخازن الرصاص، كل القادة وأوامرهم بالاندفاع والقتل، نسيت في وجهه كل الحزن، وأضعت في ملامحه، كل الحروب، كيف لم تخجل الحرب من جماله، وقفت صامتة في حرمه، فالصمت في حرم الجمال جمال، يا سيدي جمال، ثم ركضت متجاهلة كل شيء نحوه واحتضنته وبدأت

استخدم أسلوب المحقق اللعين ذاته، أسأله آلاف الأسئلة عن حاله حباً وليس حقداً بالطبع، إلى أن وصلت إلى سؤال : هل انت سعيد ؟ انتظرت إجابته إلا أنه آثر الابتسامة ثم اختفى، ودقت الساعة مرة أخرى معلنة موعد استيقاظي من نوم لم يتجاوز النصف ساعة، ربما لأنه جعلني بعمر الألف عام بين الحزن والفرح.

لا أدري كم الساعة الآن تماماً ولكنها بالتأكيد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، لا أسمع أصواتا إلا صوت معدتي الذي بات يقرصني من الجوع، بكيت كثيرا حتى انتهت رغبتي بالبكاء، كل ما أفكر فيه الآن هو كيف يتحمل الأسرى أعواماً طويلة كهذه، كيف يتحملون أساليب التعذيب النفسية منها والجسدية ولا يرضخون، الكبرياء ذاته، قضيت هنا وقتاً يزيد عن اليوم الكامل ببضعة عشر ساعة واقتربت من الجنون، كيف يتحملون، عمالقة الصبر، وبكل صبرنا سنظل اقزاماً بجانبهم، كثيراً ما نصمت حين نسمع عن صبرهم، آلامهم، صمودهم وعظمة جبروتهم ونكتفي بكلمة شعبية واحدة كتعبير عن الفخر والشوق والأسى، عن كل الصدمات التي ترتطم بعقولنا، التي لا تستطيع استيعاب مقدار عظمتهم، نكتفي بقول " واااااال " ، دقت الساعة مرة أخرى .

كفتاة طبيعية في هذه الحالة التي أمر بها لا شيء غريب في حالتي، استشهد شقيقي قبل فترة لا تتجاوز الأيام الثلاثة، ما زال خبر استشهاده وصدمتي وكل أوجاعنا، حديثي الولادة، كفتاة طبيعية في هذه الحالة لا تعرف شيئاً عن مصيرها، أهلها أو حتى عن شعورها، آسفة سقطت مني الكلمة الأهم سهواً كفتاة " فلسطينية " طبيعية، اعتادت أن تعيش هذه الحالة، في هذه الحالة التي يرثى لها، أردت التعبير عن حبي لشقيقي كفتاة طبيعية فتناولت الورقة المتبقية وكتبت عليها:

" قصي، لم أجدك في قلبي فقط، ولم تكن شقيق روحي وتوأمها وحب بين سطور الروايات، وجدتك كاتبا عظيماً في الشعر ورأيت طيفك يسكن الشعر قافية تارة وشاعراً تارة أما عن الموسيقى فأنت اللحن والوتر، رأيتك تسكن التراث يا " ظريف الطول "، عرفت أنك الخل الذي غنى له التراث العراقي، ونحن برغم اخوتنا كنا كالعاشقين الذين سألت عنهم أم كلثوم فعجزت عن الرد لجهلها بمنطق علاقتنا، وعيونك هي التي قيل لهما " رجعوني" و" يا حبي الأبدي" فلتعط الناي وعداً لأغني لك البقاء، دعني أعزفك على وتر الحب لحناً ولطالما ظننت أن هناك قمراً واحداً، حتى رأيتك على بابي فخاب ظني، يا لحني المتجسد نغمة على وتر عود عربي أصيل، لم أتوقع أنك

ستتجسد يوماً على لحن " بدري يا رفيق العمر " ولم أتخيل أنني سأقول لك يوماً: " مع السلامة يا مسك فايح " وكل ذلك فداءً ل " موطني" صوت أقدام يقترب من باب الزنزانة ، قلبت الورقة وأردت أن أكتب له شيئاً آخراً،

أراه، ها هو يقف خلفي يحدق بي ويقول " ها، شو بتبكي؟" أقول أنا بكتبلك، فيرد ضاحكاً " لا ما تكتبي، اشتبكي" فأقول مرة أخرى متثاقلة من كلامه " يا زلمة ليش انت هيك، شوف شو بدي أكتب بعدين احكي " صوت الخطوات يقترب أكثر فأكثر، يصمت هو ثم ينظر لي بخيبة أمل شديدة اعتلت عيونه وظهرت على خطوط جبينه

" أعطيتكم دمي، وبدكم تعطوني حكي؟ يا خسارة "

ثم فتح باب الزنزانة.